(الميـــــلاد)

في بيت طيني في شارع المنطار يكاد الشارع يخلو من المارة؛ فقد اضطرهم البرد الشديد إلى التزام بيوتهم الفقيرة التي يصنعها الفقراء من الطين.

حيث يحفرون الأرض الحمراء ، التي قد يتخللها حبيبات جيرية بيضاء ، ثم يجعلون من المتراكمة منها كومة يشبعونها بالمياه، ثم يقلبونها بالطواري ويدوسونها بالأرجل الحافية، والسيقان العارية إلى الركبتين، ثم يصنعون من هذه (المجبولة) طوباً بصبها في متوازي مستطيلات خشبي يعرضونه للشمس حتى يجف ليصبح حجر البناء (40*20*20) ، وأما (المونة) فهي من (مجبولة) مشابهة، إنها عملية شاقة ومرهقة ، قد لا يتمكن الرجل وزوجته وأولاده من صناعة بضعة عشرات من هذا الطوب طيلة نهاره.

وما أن ينتهي النهار إلا وقد أخذ الإرهاق منهم ما أخذ، وقد بلل العرق أسمالهم التي تستر أجسادهم النحيلة، وبشراتهم التي احترقت بأشعة الشمس الحارقة، فأصبحت أقرب إلى اللون الأسود.. يجف الطوب بعد ثلاثة أيام أو أربعة، ليأخذ رب البيت وأولاده وزوجته برصها في شكل هندسي، وهو عمل شاق آخر، وقد يلزم إضافة (قش) الشعير أو القمح إذا كانت المادة التي تصنع منها (المجبولة) أقرب إلى التراب المتحلل، ليساعد القش في زيادة تماسكها هذه المجبولة، وفي حالات يضيفون إليها الرماد عوضاً عن القش لتحقيق نفس الغرض.

في هذا البيت الطيني كانت (ضية) بأنفاسها اللاهثة والألم يعتصرها، ويداهمها القلق، وزوجها (محمد) يترقب باضطراب أن تضع زوجته مولودتها البكر من البنات، وقد أشعل

بجانبها حزمة من الحطب لتمد الغرفة المسقوفة بسعف النخيل والجريد بالدفء؛ والذي فرد عليه طبقة من الطين.

أخذت (ضية) تتلوى من ألم المخاض، دون طبيب أو حتى قابلة (داية) إلاّ الحاجة (رقية) التي لم يسبق لها أن أشرفت على عملية وضع ، واكتفت ببعض الأدعية والتمتمات، ثم دعوة (الواضعة) إلى ذكر الله، وطمأنتها إلى أن الله معها، وأن الفرج قريب.

مضت دقائق كالدهر وصراخ (ضية) يعلو، ويعلو، وعرقها يتصبب من كل بدنها، حتى دخلت فيما يشبه الغيبوبة، أعقبتها صرخة متصلة ، مع حركة دفع قوية، وإذا بصرخة مولود جديد يرى النور لأول مرة في العشر الأواخر من شهر كانون الأول لسنة 1949، حيث برد الشتاء القارس وأوائل الأربعينية ، التي يعرفها الناس بأنها أشد أيام الشتاء برودة.

دخل (محمد) مسرعًا ليطمئن على شريكة حياته، وعلى المولود الجديد ، وإذا بها بنت، رأى فيها والدها هدية من السماء، ولعل الله يرزقه برزقها، كما يعتقد الفلاحون الفلسطينيون، وقد يرجع ذلك إلى تخفيف نفور متوارث من الأنثى.

ابتهج (محمد) بمولودته وسط زغاريد الفرحة التي أطلقتها الحاجة (رقيه) مما حرك فضول عائلة (أبو أحمد مهنا) التي انضمت إلى عائلة محمد محيسن، بعد أن هجَّرتهم العصابات الصهيونية مع ما يقارب المليون فلسطيني من ديارهم، فأخذوا يلجأون إلى القرى والمدن التي لم تصلها نيران الصهاينة، وخاصة تلك التي خصَّصها مجلس الأمن إلى الفلسطينيين بموجب قرار التقسيم (181)، والذي أعطى الفلسطينيين 44% من أرضهم، وأعطى الصهاينة 56% الباقية، فهاموا على وجوههم.

حطّ الرحال بعائلة (أبو أحمد مهنا) إلى بيت (محمد محيسن) قبل سنة ونصف السنة من ميلاد (ضية) لابنتها البكر، وما أن سمعت (أم أحمد مهنا) بالأمر حتى أسرعت إلى بيت (محمد محيسن) لترى أمامها جارتها العزيزة (ضية) وقد وضعت مولودتها، وما أن رأت جمالها حتى اقترحت على والدتها أن تسميها (مريم).

***

(طفـــولـــة)

تتميز طفولة الفلسطيني عن أي طفولة، فمريم ابنة هذا الرجل الفقير الأمي، والذي يعيش مع والديه وأخوته وأخواته وزوجاتهم، وليس له إلا تلك الغرفة الطينية، وغرفة أخرى أسكن فيها العائلة المهجرة، ولا يكاد يجمع قوت يومه وزوجته، وعندما جاءت مريم كانت (كالزائدة الدودية) كما وصفت نفسها من خلال ابتسامتها، فأحدثت أزمة في هذه العائلة الفقيرة.

لم تنعم مريم بما ينعم به أطفال الأسر الأكثر حظاً، فلا حليب ولا دفء ولا ملابس، ولا تكاد تتركها أمها لاستمرار بكائها الذي يشبه مواء القطط لقلة لبن الأم ذات الجسد المهزول، والتي تعاني من فقر الدم، وبسبب سوء التغذية.

لم يستطع جسد مريم النحيل مقاومة نزلات البرد ولا أمراض الشتاء ، ولا الصيف، إلا أن أمها كانت تبدع في تغذيتها ، تذيب لها أحيانًا كسرة من الخبز الجاف في نصف كوب من الشاي، الذي كان يشتريه والدها بالوجبة، التي لا تملأ ملعقة صغيرة؛ بخمسة ملاليم، ثم تدفعه في فمها الصغير الذي صار بينه وبين هذه الوجبة ألفة ، وأحيانًا كانت تطعمها مزيجًا من الدقيق وملعقة من السكر الذي كانت تأتي به (أم أحمد مهنا) اللاجئة لصاحبتها (ضية) وقد كانت تتحصل على ذلك السكر من وكالة (الكويكرز)، التي تكفلت بتقديم خمسة كيلو جرامات من

الدقيق وكيلو سكر، ونصف كيلو من الحمص أو الفول أو العدس المجروش أو غير المجروش لكل لاجئ كل أسبوعين.

كانت (أم أحمد مهنا) من قرية المسمية الفلسطينية، قد أصبحت وعائلتها كأنها من عائلة (محيسن) ، فزوجته شقيقتها، وما رزقا من أولاد كأنهم أخوة ، والزوجان كشقيقين .

فإن طبخت (ضية) أرسلت لـ (لأم أحمد مهنا)... وكذا إن طبخت (أم أحمد) مهنا أرسلت إلى (أم أحمد محيسن).

عيد هذه هو عيد تلك، وأحزان هذه هي أحزان تلك، ويلبس الأطفال نفس الملابس بالتبادل، فقميص (ابن محيسن) يلبسه (ابن مهنا).

درجت مريم في هذه الأسرة الثنائية ، أو الأسرة الواحدة ولم تكن قدرتها في سنوات عمرها الأولى لَتميز بين المرأتين أيهما أمها، كما لم تكن تميز بين حضن أبيها وحضن (أبو أحمد مهنا).

ولما جاء مسجلو وكالة الغوث استقبلهم (أبو أحمد مهنا) وسجل أفراد الأسرتين على أنهم لاجئون جميعاً، فصرفت المساعدات لكلتى الأسرتين ، وحتى بعد أن انفصلت العائلتان – بعد سنة – بقيت المودة ، واستمر التواصل بينهما ، وتلقى الأطفال في الأسرتين تعليمهم في مدارس الوكالة ومنهم مريم، التي درست فيها حتى بلغت الخامسة عشر من عمرها.

***

(طفولة مـــريـــم)

كبرت مريم مع الأيام فأخذت بشرتها البيضاء وشعرها الناعم الكثيف، الذي تمشطه لها (أم أحمد مهنا) أحيانًا، ووالدتها أحيانًا أخرى تحبو على الأرض الطينية، فيتلوث فستانها الذي تزينه الرقاع، وقد غاصت أقدامها الحافية في الوحل، فتندفع (أم أحمد مهنا) لتغسل عنها الوحل، ثم تداعبها، فتدفعها في الهواء ليستقبلها حضنها الدافئ السعيد.

كان هذا حال المواطنين في كل بيت فلسطيني استقبل أسرة من اللاجئين.

ولم تكن أي أسرة تشكو من الجوع، فقد امتلأ الجميع قناعة بما تعده النساء من ألوان العدس، فيطبخ المجروش شوربة (مرقة عدس) أو مع(اليقطين) الأصفر ، وأما غير المجروش فيطبخ بالرز (مجدرة) مع شرائح البصل المحمر بالزيت ، أو برقائق العجين، وقد أعطينه اسمًا يفتح الشهية (كعب رشته) أو يطبخنه بالملوخية الجافة (بيصارة)، وكذا الفول والحمص ، وقليلًا ما تجد في بيت فلسطيني حبات من البندورة، وكثيرًا ما تخرج النساء إلى الخلاء لجمع أوراق (الخبيزة).

كبرت مريم في هذه الظروف ، درجت، مشت بقدميها الحافيتين، لعبت ما اعتاد البنيات على لعبة (كالحجلة)، (ونط الحبل).

***

(الأم الصغيرة)

أخذت أم مريم – بفطرتها – تعد ابنتها للمستقبل، فإذا عجنت كانت تجلسها بجانبها لتختزن ذاكرتها الصغيرة كيف تعمل، ثم تعطيها قطعة صغيرة من العجين لتصنع منها رقاقة صغيرة، وكذلك إن طبخت وإن غسلت وإن..... وكانت ترسل بها لتشتري لها من حانوت العم أبو خليل ما يلزم مثل (قطعة صابون، أو بقرش سكر، وبأخر شاي) وكانت تطلب إليها أن تعلف الدواجن، وتكنس أبراج الحمام، وجمع الأعشاب لتطعم زوجًا من الأرانب ، ولا بأس من أوراق الخبيزة، حتى تولدت ألفة بين مريم وبين الحمام والأرانب.

وكم كانت فرحتها عندما ولدت لها أمها بأخيها (أسعد).

عودتها أمها أن ترعى أخاها، تهز له السرير، تمسح وجهه بخرقة مبتلة، تناديه كما لو كان ابنها الحبيب، روضت نفسها على ألا تشعر بالملل من أخيها وتجرأت على حمله بيديها الصغيرتين، بعد أن كانت أمها تتعمد أن تضعه في حضنها، فتحوطه بكلتي يديها ، كبر معها، يطاوعها، يسكت بكاؤه عندما يراها، وتبدأ ذراعاه تتحركان بحركات سريعة كجناحي صقر صغير في عشه مجرد أن رأى أمه وقد عادت إليه بالغذاء بعد غياب.

فصارت أمًا ثانية أو ثالثة لإخوتها.

تضحك (بكركرة) إذا سمعت أحدهم (يكركر)، تصنع لهم أصواتًا، وتلاعبهم بها ليضحكوا، تظل تلاعب الباكي حتى تزيل عنه أسباب بكائه.

كانت حناناً دفاقًا لا يتوقف، ولا تسمع لها صوتًا إلاَّ في مداعبتها لأخوتها، تدربهم على المشي بعد الحبو، تغني لهم (تاتا خط العتبة تاتا حبه حبه)، بنفس الطريقة التي تعلمتها عن أمها.

وفي بعض الأحيان كانت ذراعاها لا تقوى على حمله ، فتجد نفسها وقد ألقى بنفسه وبها أرضًا ، ليرتفع صراخهما، وتأتي أمها بفزع على صوتيهما، وترفعهما وهي تبسمل، وتنفث من حولهما خشية أن يكون قد أصابهما مس من الجن وتردد (دستور يا أصحاب المطرح..)

ثم تأتي بإبريق لترش الماء في المكان كي ترضى الجن، كيلا يمس صغارها.

كبرت مريم وصارت تجرى في الأزقة، تلعب مع بنيات الحارة من المهاجرات والمواطنات على السواء، بلا فرق، في مطعم أو ملبس ، ولهن نفس الوجوه الشاحبة، والأقدام الحافية التي يتخلل أصابعها وحل الطرقات، والطين اللزج المعجون بمياه الأمطار شتاءً، والتي تتحول إلى أرض صلبة لاهبة تشوى الأقدام الصغيرة والكبيرة صيفًا، فنادرًا ما تجد المرأة حذاءً، وكذا الرجال، فاستعاضوا عنها بالقباقيب المصنوعة من خشب الأثل الخشن، التي لا تكلف صناعتها إلا أن يذهب رب العائلة بفأسه إلى أقرب شجرة من أشجار الأثل أو السدر. ليقطع فرعًا، ثم يجعله شرائح باستعمال منشار ومبرد بدائيين، ثم يثبت في مقدمته (سيرًا) من الجلد، غالبًا ما يتحصل عليه من (كاوتشوك) قديم، لواحد من عجلات السيارات التي فقدت صلاحيتها للاستعمال، وأخيرًا فازت مريم بقبقاب لقدميها الصغيرتين اللتين أكل منهما طين الأرض وبرودتها في الشتاء، كما شوتهما رمضاء الصيف، وأدماهما حصى الطرقات وكثرة الكدمات في الحجارة الصخرية، أثناء

لعبة الحجلة، التي تتطلب رسم مستطيل طوله ثلاثة أمتار، وعرضه متران، ثم تقسيمه إلى ستة مربعات، وتأخذ البنيات بالتقافز عليها بعد أن تضع الواحدة منهن شقفة من الصخر، تقوم بركلها برؤوس أصابع قدميها الصغيرة، من مربع إلى مربع، فإذا توقفت الشقفة على الضلع بين مربع ومربع فقد خسرت الدور، وفي حال نجاحها في أن تخرج الشقفة إلى خارج المربع السادس دون أن تتوقف على أي ضلع فاصل فقد كسبت، وهكذا تكون الفائزة هي من كسبت أكثر المربعات دون زميلتها ، وغالباً ما ترجع إلى البيت –بعد هذه اللعبة– إلا وأصابع قدميها قد سال دمها، إثر ركلها المتكرر للشقفة الصخرية، ولا يكون الركل إلا بقدم واحدة، فاللعبة تقتضي أن تقفز اللاعبة على ساق واحدة، بينما تكون الثانية معلقة في الهواء.

تعود مريم بعد كل مباراة وقد اتسخ ثوبها وأصابعها ، لتأكل وجبة لوم من أمها المحبة، وما أن يأتي صباح يوم آخر حتى تخرج مريم للحجلة، إذ لم يفلح التأنيب عن ثنيها عن لعبتها المفضلة، كما لم يفلح القبقاب في حماية قدميها من الكدمات، لأنها تركنه جانبًا، لتأخذ بالتقافز حافية، وذات يوم عادت إلى أمها باكية، فثمة من سرق القبقاب، وفشلت في التعرف على من أقدم على ذلك، فما كان من أمها إلا أن هونت عليها الأمر بقولها: سامحيها يا مريم، يمكن أبوها فقير، وليس لديها قبقاب، أو هي (مهاجرة) وليس لها أب، بعد أن قتل اليهود أباها.

كانت كلمة اليهود من أكثر الكلمات التي كانت تسمعها مريم، يرددها أبوها، وأمها، وأبو أحمد مهنا وزوجته ، كانت دائمًا مقترنة بالقتل والتشريد والذعر.. حفظت عنهم أن اليهود قتلوا آباءهم، والحاجة فلانة والطفل فلانًا، وسرقوا مال فلان، ودمروا القرية الفلانية.

كان الكبار يتبادلون قصصًا عن جرائم اليهود في مجالسهم، وكانت مريم تستمع بصمت واهتمام، لتنقل ما سمعت لصاحباتها في فترات الراحة من اللعب، والتي ازدادت يومًا بعد يوم،

فقد وجدت ما يعوضها عن اللعب الدامي بسرد ما تسمع من وقائع وأحداث الحرب التي شنها اليهود على فلسطين وأهلها، وأخذ خيالها الصغير ينسج المزيد، لتصبح مريم (الجدة الصغيرة) لبنات الحارة تقص عليهن (الخراريف) وخاصة في الليالي الصيفية المقمرة، في الوقت الذي يتراكض فيه (الأولاد) الذكور وراء بعضهم في لعبة الاستغماية، أو طاني طاني، أو عسكر و حرامية، أو الشقف.. وأما ألعابهم في النهار فهي كرة القدم، التي يصنعها الأطفال من الخرق البالية.

كانت مريم وصاحباتها اللاتي كانت أعدادهن تتزايد كل يوم مع مرور الأيام، وكن يتجمعن أمام باب أحد البيوت، ويفترشن الأرض التي لم تعد موحلة بعد أن ذهب فصل الشتاء، وتبدأ في سرد (خراريفها) التي جمعت المزيد منها مما سمعت في نهارها، وأضافت إليها من خيالها.

كانت تتحدث لزميلاتها عن قصص وقعت في الماضي القريب... إلى أن كان يوم، وقد بلغت من عمرها ست سنوات ، فقد هاجم اليهود مركز شرطة خانيونس، وقتلوا عشرات من الشباب الفلسطيني، وفجروا سيارة جند بالقرب من وادي غزة.

لقد ارتجت الحارة، الكل يجري وينادي على أصحابه ليذهبوا إلى مستشفى تل الزهور العسكري، الذي بناه الجيش المصري في أول شارع عمر المختار.

أخذ الشباب يتسارعون للتبرع بالدم لإسعاف الجرحى، وذهب معهم أبوها وصديقه أبو احمد مهنا ، وأخذت دموع أمها ودموع أم أحمد مهنا تسيل بغزارة لتنفجر مريم باكيةً، غاضبةً، ثائرةً على اليهود، وأخذت تدعو عليهم بالهلاك بما سمعت من دعاء من نسوة الحارة، وامتلأت كراهية لهؤلاء القتلة المجرمين، الذين سرقوا أرض عمها أبي أحمد مهنا وداره وقتلوا الشباب.

(المـــدرســـــة)

أخذ أبو سعيد محيسن ابنته مريم، وذهب بها إلى مدرسة من مدراس اللاجئين ليسجلها، حاملًا معه شهادة ميلادها وبطاقته الشخصية، لتجد نفسها بين عشرات من البنات، كانت هي من أصغرهن.

تناولت من المعلمة لفافة، حملتها لأمها التي فتحتها، فوجدت فيها قطعًا من القماش القطني المقلم طوليًا بخط أبيض وآخر أزرق، وما عليها إلا أن تذهب بها إلى جارتها أم حسن لتخيطها على آلة الخياطة ، وهي سيدة من المهاجرات من مدينة المجدل ،حملت آلتها معها، ضمن ما حملت من بيتها، قبل أن يطردها اليهود منه هي وزوجها وأولادها ، وكان للآلة طاولة صغيرة، تشغلها أم حسن بمهارة بحركة دائرية بيدها، التي تستلم مقبض التشغيل فتحدث صوتًا (تك.. تك.....) وتزداد عدد التكات كلما زادت أم حسن من الحركة الدائرية بيدها القابضة على مقبض التشغيل.

ذهبت أم سعيد لتخيط ثوب مريم المدرسي، ومعه (بكرة الخيط) التي كانت في اللفافة أيضًا، طلبت أم حسن قرشًا أجرة العمل! فقالت أم سعيد كفاية نصف قرش (تعريفة) يا أم حسن وابتسمت ابتسامة خجلى، فوافقت، وهكذا صار لمريم ثوب مدرسة بنصف قرش، واشترى لها أبوها قبقابًا جديدًا، بعد أن راجت تلك الصناعة وكثرت.

أبدت مريم اهتمامًا لتلقى الدرس الأول وبنباهة، لفتت نظر معلمتها.

أخذت تردد بنفس نغمات معلمتها (راس روس، دار دور).

وأخذت تخط أول الأحرف بقلمها (الكوبيا) وكراستها التي استلمتها من المدرسة أيضًا، إضافة إلى كتاب القراءة وكتاب الحساب.

وتعلمت أن تردد النشيد المدرسي:

بلادنا بلادنا *** من أجلها جهادنا *** من أجلها استشهادنا

بلادنا بلادنا

من رفح لصفد *** خريطة لبلدي

رسمتها في كبدي *** أورثتها لولدي

فهللت أمجادنا *** بلادنا بلادنا

لها غدًا سنرجع *** وأرضها سنزرع

تهيأوا تجمعوا *** ففي غدٍ ميعادنا *** بلادنا بلادنا

الكرمل المعطر *** والساحل المخضرضرُ

واللوز والصنوبر *** والبرتقال المزهر *** بلادنا بلادنا.

مرت السنة على مريم سريعة وإذا بها وجهًا لوجه مع اليهود ، حرب، ضرب ، نار، طائرات، وصفارات إنذار، ملاجئ، في كل بيت ملجأ (وكر) رأت أباها وأمها، وأبا أحمد وأم

أحمد يحفرون الأرض في فناء البيت، اخدود عميق وطويل، ثم سقفوه بألواح من الصفيح وأغصان الأشجار (للتمويه).

فما أن يسمعوا صفارات الإنذار من أعلى مئذنة في مسجد الحارة حتى يسارعوا جميعًا بالنزول إلى الوكر، فإذا زال الخطر خرجوا ، ولكن سرعان ما يسمعون صفارات الإنذار من غارة جديدة ...وهكذا – بلا توقف – ليلًا أو نهارًا

كانت صفارة الإنذار مصحوبة بنداءات الشباب: أطفئوا الأنوار، فتسارع النساء والرجال لإطفاء مصابيح الكاز، أو السرج؛ كيلا تستدل الطائرات على وجود الأسرة (هنا) فترمى عليهم القيازين (براميل المتفجرات).

أخذ الرجال يتجمعون مساءً عند جارهم العم أبو خليل ليستمعوا إلى المذياع الوحيد في الحارة، كان المذياع كبيرًا أشبه بصندوق البرتقال الذي أحضره أبوها يومًا من بيارة البورنو، حيث كان يعمل في موسم قطف البرتقال، فقد كانت غزة، ككل فلسطين، تشتهر به، وطالما سمعت عمها أبي أحمد مهنا وهو يتحدث عن بيارتهم في المسمية ، وأنه كان يجمع منها مئات الصناديق من البرتقال والليمون!!

وكانت مريم تقف من بعيد لتستمع إلى المذياع، سمعت عبد الناصر يخطب بصوت هادر: حنحارب مش حنستسلم، طرق سمعها اسم الأزهر لأول مرة، وأن عبد الناصر يخطب من على منبره، يتحدى جي موليه وايدن وبن غوريون ، وسمعت من أبيها والعم أبي أحمد أنهم رؤساء العدوان الثلاثي على غزة ، واستمعت مرات ومرات إلى أنشودة (الله أكبر) حتى حفظتها عن ظهر قلب : الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر فوق كيد المعتدي....الله للمظلوم خير مؤيد..

أنا باليقين وبالسلاح سأفتدي... بلدي ونور الحق يسطع من يدي... قولوا معى .. قولوا معى، الله الله الله أكبر، الله فوق المعتدي.

يا هذه الدنيا أطلي واسمعي... جيش الأعادي جاء يبغي مصرعي، بالحق سوف أرده وبمدفعي، فإذا فنيت فسوف أفنيه معي، قولوا معى.. قولوا معى، الله الله الله أكبر.

****

أخذت تقلد الأولاد في ألعابهم (عسكر وحرامية) لكن تفتقت قريحتها على أن تكون (نارسة)، ممرضة للجرحى منهم.. حدثت أخاها أسعد الذي وافق من فوره.

علمت أمها بذلك، فما كان منها إلا أن قالت من خلال دموعها: لا يا مريم، عيب اللى بتلعب مع "صبيان"، إلعبي مع صاحباتك، فاليهود قتلوا وجرحوا بنات صغارًا.. عالجوهم يا بنتي .. قالتها بابتسامة، ولا تزال دموعها تتدفق، مما يذكر مريم بنشيد العتاب للشمس، التي كانت تطل أحيانًا من خلال غيوم ماطرة في فصل الشتاء، **فأخذت تردد:**

عيب عليك تمطري والشميسة طالعة

****

كان العدوان الثلاثي شرسًا، تعطلت لأجله مدرسة مريم. قالت سارة التي تكبرها بسنتين: أحسن ما في الحرب أنَّ المدرسة سكرت، وليس هناك دراسة، فردت عليها مريم: لا هذا أسوأ شيء ، ليت المدارس تظل مفتوحة ولا تتعطل يومًا طيلة السنة، ولا يجرح أي شاب، ولا يأتي اليهود ليطردونا مرة ثانية من بلادنا، وهل يعجبك ألاَّ ندرس، في حين أن اليهود يقتلون فينا ويسرقون بلادنا؟!

انضمت كل البنات لرأي مريم، وطردوا سارة من بينهن، بعد شجار خرجت منه سارة مهزومة، وقد ضربتها خديجة الأكبر منها، وتعاونت الأخريات معها في ذلك، إلا مريم التي أخذت تصرخ: لا حرام، حتى تراجعت البنات، لتذهب مريم إلى سارة معتذرة باكية لبكائها، ولم تفارقها حتى رأت ابتسامتها تشرق من جديد، فاعتذرت سارة عما قالت، فأخذت مريم تتم الصلح بين المتخاصمات، ورجع الجميع إلى ملعبهن (في المستشفى) حيث الجريحات، وصفارات الإنذار التي كانت تؤديها خديجة بمهارة، بصوتها الرفيع الحاد، والذي يجعل مريم تضحك لسماعه، وتتمنى من قرارة نفسها أن يكون لها صوت مثله، بدل صوتها الخفيض، الذي لا يكاد يخرج من عبها، كما كانت تقول أمها.

استمعت مريم إلى حديث المساء (الهامس) بين أبيها وعمها أبي أحمد مهنا، خشية أن تسمعهما الطائرات اليهودية ، وقد أطفأوا السراج الوحيد.

سقط من مخيم الشاطئ يا أبو أحمد شهداء كثر.

فقال أبوها: الله يرحمهم ، اليهود لا يستثنون أحدًا حتى المستشفى ضربوه، وضربوا الجرحى، ومات الشيخ زكريا، وأنت تعلم أنه كفيف.

أخذت دموع مريم تتسابق على خديها ، ولونها الشاحب الأبيض ازداد شحوبًا، وذهب بها الخيال إلى الشيخ زكريا الملطخ بدمائه، وأخذت ترسم له صورة وقد تقطعت أطرافه ، ثم قبل أن تصعد روحه إلى السماء، أخذ يبحث عن ذراعه اليمنى التي طارت من جسده دون أن يراها، بيده اليسرى، فاصطدمت بشظية ملتهبة فانقطعت هي الأخرى، صرخت مريم بفزع لما وصل إليه خيالها للشيخ زكريا.

انتهت الحرب، واحتل اليهود قطاع غزة، وبعد أيام استمعت إلى صوت؛ كما استمع إليه كل الناس يأتي من طائرة ضخمة: هالو ... هالو... أنا بأكلمكم وأنا في الطيارة .. أنا أبو داود.. أحذركم، كل من يؤمن عسكري مصري أو فلسطيني أو عنده سلاح فليسلمه إلى أقرب مخفر شرطة .. هالو.. هالو أنا بأكلمكم وأنا في الطيارة.

وعندما انصرفت الطائرة أخذ الناس يبصقون عليها، وأخذت مريم تفعل نفس الشيء، ووصل إلى سمعها صوت العم أبو خليل : اللى بيسلم واحد أو يسلم قطعة سلاح هو خائن .. ووافقه الجميع.. وقال أبوها: خائن وابن خائن كمان...

عاد الصوت الكريه مرة أخرى، ولكن من على ظهر دبابة هذه المرة.

هالو .. هالو... أنا أبو داود

على الجميع من سن 15 إلى سن الـ 60 أن يذهب غدًا إلى مدرسة الزهراء، فجيش الدفاع سيدخل كل بيت للتفتيش عن السلاح والمخربين.

حدد الصوت الساعة السادسة من صباح الغد التالي.

كان الصقيع لا يزال يكسو وجه الأرض الطينية اللزجة، وكانت البرك ملأى بالمياه، وكذا حفر الطرقات، خرج الرجال في ذلك الصباح البارد، وقد خلفوا من ورائهم زوجاتهم المذعورات والأطفال.

خرج أبو سعيد محيسن، بعد أن احتضن مريم وقبلها، وقبل أولاده ووالديه العجوزين وزوجته مودعًا، لم تر دموعه وهو يودعها، ولكنها رأتها عندما أخذت تجري هي وأخوتها من خلفه بعد أن خرج من باب الدار.

فأخذ يمسحها بكم معطفه (البالي) وخاصة عندما رأى مريم وهى تودعه وداع الأم لابنها الشجاع إلى ساحة المعركة، فقد سمعت من أم أحمد مهنا أنها ودعت أخاها احمد إلى القتال وهي تزغرد، وعندما جيء به شهيدًا استقبلته وهي تزغرد، فلذا أطلقت على ابنها الأول اسم أخيها (أحمد) لتحيي الاسم مرة أخرى ، كما اعتادت الأسر الفلسطينية أن تفعل، وهكذا فعلت أم أحمد.

***

عاد من عاد من الرجال إلى بيوتهم عند عصر نفس اليوم إلا أبا خليل.

علمت مريم أن اليهود قد أطلقوا سراح الجميع ، وإذا بمكبر صوت ينادي بحظر التجوال قبل أن يكتمل اندفاع الرجال إلى الشوارع، وكان الجيش منتشرًا على الطرقات وفي الأزقة، فأخذوا يطلقون النار على الرجال الذين أخذوا يسارعون بالعودة والاحتماء بالجدران أو البيوت!! ومن سلمه الله عاد، ومنهم والدها، وأبو أحمد.

وقفت مريم حائرة وعيونها زائغة، أين العم أبو خليل؟ وظلت على هذه الحال إلى ضحى اليوم التالي، لتعلم أن أبا خليل قد أصابته رصاصة في ركبته، وأخذ يزحف إلى أن دخل بيتًا ، ثم إلى المستشفى حيث قام الطبيب ببتر ساقه اليمنى، وها هو يرقد هناك.

انزوت مريم جانبًا، وأخذت تبكي بمرارة وبصمت، ولم تذق كسرة خبز رغم محاولة أمها المستميتة لإطعامها، إلا أنها أبت، وعقدت العزم على أن تذهب لزيارته.. أليست نارسة (ممرضة)، ولديها خبرة في تضميد الجراح؟ حدثت كلًا من خديجة وسارة بالأمر، وعند الظهر خرجت سرًا ... فالمستشفى قريبة من مدرستهن، ولا يخشين العودة، خاصَّة وأن سارة قالت: المستشفى بجوار دار عمي.

ودخلت مريم وزميلاتها إلى بوابة المستشفى الخارجية، وتوسلت إلى الحارس كي يسمح لهن بالدخول، بدعوى أن عمهن جريح هنا، فرقَّ لهن، ودخلن، وإذا بهن وسط زحام كما لو أن يوم القيامة هو ذاك اليوم.

زحام، وتدافع، وبكاء، وصراخ، وشق جيوب، رجال، ونساء.

حمالات تحمل القتلى، وبقع الدماء في كل مكان مع قلة الأطباء والمعدات، وقلة الممرضين.

انقبض صدر مريم، وحدثتها نفسها بالخروج، إلا أن هاتفًا من داخلها يصرخ فيها:لا تخافي، تقدمي لتسعدي عمك أبا خليل، كما أدخلت السرور على سارة، تقدمي، ألست(نارسة)؟ تقدمت سارة، وأخذت تتسلل حتى وصلت إلى رجل يرتدي ثوبًا أبيض.

سألته، فأجابها: هناك.. ركضت إلى أن وصلت إلى أبي خليل.. احتضنت رأسه.. بكت بصمت.. تساقطت دموعها على وجهه، لامست عينيه المغمضتين.. بكت النسوة من حولها، جاء ممرض ليخرجها، تشبثت بأبي خليل.

أخذت تلعن اليهود، تكرههم أكثر.. لحقت بها خديجة وسارة، صوت خديجة يرتفع حادًا رفيعًا، ولكن هذه المرة كان باكيًا، وأخذت سارة تضرب على صدرها، ثم تلطم خديها، تمامًا مثل الأمهات الثكالى، اللاتي رأتهن في باحة المستشفى.

خرج موكب الفتيات الثلاث، ولم يتوقفن عن البكاء والصراخ حتى وصلن إلى بيوتهن.

استقبلت أم مريم ابنتها بلهفة بعد أن أرهقها البحث عنها، حتى أصابها الذعر من خاطرة استبدت بعقلها (اختطف اليهود مريم...).

احتضنتها مؤنبة وعاتبة. برغبة أن تشبعها ضربًا، ولكنها أخذتها في حضنها وأخذت تنادي: يا أبا سعيد ها هي مريم.

كأن هناك زلزالًا ضرب البيت بحثًا عن مريم، فانفجرت مريم باكية.. مرددة اسم (عم أبو خليل.. قطعوا له رجله.. شفته.. زرته) وغرقت في موجه من البكاء، بكاء هستيري لا يتوقف أبدًا ، ولعنت اليهود واللي خلفوا اليهود.

تجدد الحزن – مرة أخرى – في صدر مريم، وانتقلت عدواه إلى صدر كل فرد من عائلتها.. أمها وأبيها، أخوتها الصغار. . أخذت أمها تضرب ظهر يدها اليسرى ببطن يمينها.

وانتحى والدها جانبًا وقد وضع رأسه بين كفيه وأخذ يبكي بنحيب .. لا حول ولا قوة إلا بالله.

****

وعند الظهر جاء اليهود ليدخلوا بيت أبي سعيد للتفتيش عن جنود أو أسلحة.

جمعت أم سعيد أولادها في غرفة خلف ظهرها إلا مريم، التي أبت أن تتوارى وراء ظهر أمها، ووقفت أمام الجنود.

ليس عندنا شيء، لا جنود ولا سلاح. نهرها الضابط، أصرَّت .. والله ما في ، وليس لنا إلا هذه الغرفة.

كان عقلها الصغير يحاول تضليل الجنود عن (الوكر).

أخذت أيدى الجنود تعبث في محتويات الغرفة، اللحافات، الفرشات، الوسائد، الملابس.. وجد أحدهم سكينًا .. فكسرها وألقى بها في كيس يحمله ثم خرجوا مشيعين بلعنات مريم، والشرر

المتصاعد من عيون أخوتها الصغار، ودقات صدر أمهم الخائفة من أن ينال أحد أولادها السلاح الأبيض المزروع في رؤوس بنادقهم الموجهة نحو صدر الأم وأولادها الصغار.

***

أضنى البكاء العائلة على أبي خليل، فنهض أبو سعيد محيسن بتثاقل ليلقى أبا أحمد مهنا الذي يناديه.

جلسا ليتبادلا الحديث عن أبي خليل، فأسرعت مريم لتقص عليهم ما رأت ببكاء متصاعد أبكى الرجلين.

لم يعد رجال الحي يلتقون حول مذياع أبي خليل وقد سرقه اليهود.

ولم تعد مريم تستمع إلى نشيدها المحبوب (الله أكبر..) والتفت الحارة بأثواب الحداد السوداء.

وهي أثواب نساء غزة، ولكنهن أخذن يغطين رؤوسهن بأغطية سوداء بدل البيضاء .

كان الغطاء يغطي معظم جسم المرأة من أمامها ومن خلفها، فضلًا عن رأسها، وكن يتقن – أيضًا– تغطية وجوههن إلا العينين.

ظهرت النسوة بهذا اللباس وكأنهن يُعلنَّ الحداد على الشهداء من جانب، ومن جانب آخر ليعلن لليهود أن أيامكم علينا سوداء.

(تحـــريـــر غـــزة)

ما يزيد على مائة يوم على دخول اليهود غزة، فكانت كمائة سنة على مريم، مرت... حزينة.. بائسة.. خاصة بعد أن عاد أبو خليل بساق واحدة، وتحت أبطيه عكازان ، طبعًا الأخرى ملفوفة بجبل من القطن والشاش الأبيض ..

لم تقو على رؤيته لأول وهلة.. ولكنها اندفعت نحوه لتقبل يده، وأن تقبل ما بقى من ساقه، ولكنها خافت أن تسبب له ألمًا هو في غنى عنه.

انحنى أبو خليل وقبلها على رأسها.. وهو يبتسم. لا يا مريم "الحمد لله" إحنا يا بنتي أحسن من غيرنا، وغيرنا أحسن منا.. هكذا أراد الله.. هكذا فعل اليهود في كل مدن القطاع وقراه.. من غزة إلى رفح يا مريم .

استيقظ أهل قطاع غزة منذ الفجر على أصوات الهتافات ، والرصاص، لقد انسحب اليهود بعد مائة وثلاثين يومًا من الاحتلال البغيض، مارس اليهود فيها كل صنوف الإجرام، وما أن خرجوا حتى انطلقت حناجر الأطفال وهي تغني.

غزتنا يا عربية يا أم الأبطال.

لا تخافي من عذابك يا روحي طال

وراك سعود والقوتلي وحسين وجمال

بطل الأمة العربية من وادي النيل

عشنا وشفنا وجربنا .أشكال وألوان

لكن ما شفنا أجرم من إسرائيل

نصبوا سلاحهم في شارع عمر المختار

كنا ما بنسمع منهم غير ضرب النار

حفظت مريم النشيد لأول مرة سمعته، وأخذت تترنم به مع صاحباتها، ولكن هناك طلاسم لا بد من حلها؛ فمن هم سعود والقوتلي وحسين وجمال؟ أخبرها أبوها رغم أميته، أحبَّ الوحدة العربية، لأنها سبب في تطهير غزة من اليهود، وأنها –حتمًا – ستكون– سببٌ في تطهير فلسطين كل فلسطين منها.

إلاَّ أنه سيكون صعبًا عليها فراق العم أبي أحمد والخالة أم أحمد وأولادهم عند عودتهم إلى المسمية. ولكنها سرعان ما طمأنت نفسها.. سنزورهم، ونلعب معًا في بيارتهم، وسيزورونا !! ابتسمت لهذا الخاطر.

بعد ساعات، كان أهل القطاع في الشوارع، فقد انسحب اليهود بسريةٍ تامة.

ولم يشعر بهم إلا القليل من الشبان، وهم الذين قاموا بنشر الخبر.

علمت مريم أن قوات أخرى حلت محلهم، يطلق عليها (قوات الطوارئ الدولية) لحفظ السلام.

وعلمت ممن حولها أنهم جاءوا بقرار من الأمم المتحدة، لم تستوعب مريم ذلك، إذ لم تسعفها سنواتها الثمانية في فهم هذه التفاصيل، ولكنها أدركت أن الذين جاءوا لا ينوون قتل الشباب ولا الأطفال، ولا يسرقون أرض غزة ولا رفح أو خانيونس، وما جاءوا إلا ليحفظوا السلام (وما السلام) بين مصر وغزة من جانب، وبين اليهود من جانب أخر.

وأخذ يتناهى إلى سمعها أسماء لمجلس الأمن والاتحاد السوفيتي وبولجانين.

وعلمت أن الأخير قد هدد إسرائيل وإنجلترا وفرنسا بالحرب الذرية، إذا لم يخرجوا من مصر وغزة، ولهذا خرجوا ، ولذا أحبت مريم هذا البولجانين، وتصورت أنه رجل قوي جدًا وعضلاته تهد الجبال، ورأسه أكبر من الزير، ولم لا؟ فإن أباها قال: إن الروس هم الذين أمروا الدول الثلاثة بالخروج، وهو واحد منهم، إذن رأسه كبير كالزير.

علمت مريم أن مسيرات الفرح بالنصر تجوب مدن القطاع، وخاصة شارع عمر المختار، ترفع صور عبد الناصر وأعلام فلسطين ومصر، ثم انطلقت إلى مبنى الأمم المتحدة بغزة، وصعد شاب أعلى عمود الكهرباء على باب المبنى، فأمره جندي من قوات الطوارئ بالنزول فما امتثل... يريد أن يرفع علم فلسطين، وأصر على ذلك، وهو يهتف: عاشت فلسطين عربية حرة؛ فأطلق الجندي عليه الرصاص، فسقط شهيدًا مضرجًا بدمه، والراية في يده.

أصاب الوجوم الناس وأخذوا في سرد التفاصيل، التي لا تخلو من قسط من الخيال، وغالبًا ما كانت تتضمن ما يبعث على القلق، ويبعث المخاوف من القادمين الجدد، أهم يهود، من جنسيات مختلفة؟ ولماذا لا يوجد بينهم من إخواننا العرب؟ لماذا من البرازيل والسويد والدنمرك والهند وأندونيسيا؟ لماذا ليسوا من المسلمين؟ ولماذا قتلوا هذا الشاب؟ أليس يريد أن يرفع علمنا؟ أسئلة كثيرة كانت تدخل رأس مريم، فأعادت لها الأحزان من جديد، عادت إلى أحلامها في أن تكون

لها طاقية الإخفاء تتمكن بها من الوصول إلى قاتل الشاب دون أن يراها أحد، فتذبحه بالسكين الجديدة التي حلت محل تلك التي كسرها اليهودي، ورمى بها في الكيس عند تفتيشه بيتهم، ولما لم تجد تلك الطاقية، أخذت تبكي؛ فقد شعرت بالقهر، فالشباب هم أخوتها أو أبناؤها ، ولكنها أخذت تردد.. الله أكبر فوق كيد المعتدي.

إذن، هؤلاء المعتدون سيقهرهم الله فهو فوقهم، ونحن المظلومون .

ارتاحت مريم لهذا المعنى، ووجدت نفسها تبتسم ، وتنهض برشاقة لتبحث عن إحدى صاحباتها، وفعلًا وجدت خديجة، التي صارت تنظر إليها على أنها أكبر منها، رغم أن العكس هو الصحيح ، فمريم صاحبة الأفكار وهي الحنونة، وهي المعلمة، وهي المبادرة .

اتجهت الفتاتان نحو بيت مريم، فإذا والدتها تنتظر: يا مريم أخوك الصغير غلبني وأنت تلعبين؟!!

لم تتكلم، واعتذرت لأمها، ودخلت فوجدت أخاها (عاطف) نائمًا، قاومت رغبة في صدرها أن توقظه، لكنها دفعت تلك الرغبة والتفتت إلى خديجة، وجلستا قريبًا من (عاطف)، وأخذتا في الحديث عن شهيد العلم، إلا أنهما توقفتا عند كلمة قتلوه.. ولكن من؟ ولماذا؟ وماذا سيفعل الشبان؟ وهل سيجمعونهم في مدرسة الزهراء؟ هي الأسئلة التي خطرت على بال مريم، ولم تجد جوابًا!! فحملتها إلى أمها التي تذرعت بكثرة مشاغلها، ثم ستذهب هي وأم أحمد إلى بيت الشهيد!! تعلقت مريم بأمها لترافقها، ولكنها أبت.

***

(قطـــار النصـــر)

بعد أسبوع بالتمام والكمال من هروب اليهود (حسب الوصف الجديد لصوت العرب لانسحاب اليهود) استيقظ أهل الحارة على صوت الزامور المدوي لقطار السكة الحديد القادم من القاهرة، لأول مرة منذ مائة وأربعين يومًا.

خرج الناس لاستقبال القطار ببهجة كانت مجرد أمنية، خرجوا على صوت بوقه ذي الصوت المدوي الذي يكاد يسمع كل من في غزة، وكان يردد(تا تت تاه– تت تت تاتت).

هتف الناس من فورهم معه (عاش جمال عبد الناصر)، فأعادها سائق القطار عشرات المرات، والناس من حوله يهتفون: عاش جمال عبد الناصر.

كانوا سعداء، حتى وصل بالعجائز أن يرقصن أمام الرجال والشباب، كما أن الرجال يرقصون ويلوحون بعقلهم حينا، والمسابح حينًا.

القطار قادم من مصر –فعلًا– بعد انقطاع طال .

استقبله الناس، كل الناس حتى ليظن بأن البيوت قد فرغت من ساكنيها، فقد كانوا جميعًا مشغولين في إعداد الاحتفالات والتي أسموها فعلًا احتفالات أعياد النصر، والتي أخذت تمتد لسبعة أيام متوالية، ولم تجرؤ مريم على السؤال لماذا هذا الأسبوع بالذات؟ ولماذا يبدأ باليوم السابع من مارس، وينتهي في الرابع عشر منه؟ حتى جاءها الجواب من معلمتها، بعد أن عادت

الدراسة من جديد، أما 7 مارس –يا مريم– فهو يوم خروج اليهود من قطاع غزة ، وأما 14 مارس، فهو يوم عودة الإدارة المصرية للقطاع، وكانت المدرسة قد تغيرت معالمها.

فقد امتلأت جدرانها بالرسوم.. صور شهداء، بنادق في أيدي جنود.

دبابات، صور عبد الناصر، وخارطة فلسطين باللون الأسود لما احتله اليهود سنة 48، وأما الضفة الغربية – ومنها القدس– وقطاع غزة فباللون الأخضر، وقد أشار الرسام إلى المدن الكبيرة بدوائر حمراء في المساحتين، فهذه يافا، وحيفا، وعكا واللد والرملة، ثم القدس ونابلس وجنين وبيت لحم ورام الله.. وغزة ورفح وخانيونس .

وقد كتب تحت الخارطة بالخط الكوفي (إننا عائدون).

وقفت مريم تنظر إلى الصورة والخارطة وهي مبهورة، خاصة إلى الجندي الواثب بسلاحه من القدس وعينه على يافا إلى المساحة السوداء، إشارة إلى أن التحرير لا يكون إلا بالجيوش "وقوة السلاح".

ترسخت هذه المعاني في قلب مريم وقلوب صاحباتها وخاصة خديجة، التي قالت بابتسامة ماكرة: قرية عمي أبي أحمد ليست على الخارطة يا مريم؛ فأجرت مريم –على عجل– عملية مسح على الخارطة باحثة عن المسمية، وعلى الفور اتهمت الرسام بأنه نسيها أو لا يعرفها.

جلست مريم في الفصل وقد استولى على ذهنها شرود عما تشرح المعلمة، التي فاجأتها بسؤال: أين تقع رفح يا مريم؟ فأجابت على الفور: من القدس!!

فضج الفصل بالضحك، مما شدها إلى الفصل من شرودها، ومن خلال ابتسامة المعلمة: كان سؤالها.. ما الذي ذهب بك إلى القدس يا مريم؟

فتلعثمت جفونها واضطربت، ثم تمالكت نفسها وقالت: كنت أفكر في خارطة فلسطين يا معلمتي، ووقف عقلي عند صورة الجندي الواثب منها إلى أرضنا المحتلة، فظننت أنك تسألين: من أين ينطلق جيشنا لتحرير بلادنا؟ فقلت من القدس.. وأمرت المعلمة جميع الطالبات أن يصفقن لمريم، التي ارتسمت ابتسامتها.. ثم اعتذرت لمعلمتها وشكرتها.

***

أتمت مريم السنة الدراسية الثالثة فالرابعة، حتى أنهت المرحلة الإعدادية بتفوق، وآن الأوان أن تترك مدارس وكالة الغوث، لتلتحق بمدرسة الزهراء الثانوية، وفي هذه السنة كانت قد كبرت ، وامتلأ جسدها، وازدادت طولًا .

وأخذت تطيل النظر في المرآة... لتتأكد من تسريحتها وشعرها المنسدل على ظهرها، ومريولها الذي لا يكاد يغطى ركبتيها، بينما ساقاها مكشوفان، كانت في الثانية الإعدادية أي في الرابعة عشر، وكانت صاحبتها خديجة قد سبقتها إلى (الزهراء) فلازمتها بدلًا عنها (منى) ابنة عمها أبي أحمد مهنا، وكانت تكبرها بعامين وبينما هما متوجهتان إلى المدرسة فاجأهما فتيان في أوائل المرحلة الثانوية، هكذا قدرت مريم لأنهما ليسا بحليقي الرأس كما هو شأن تلاميذ الابتدائية والإعدادية، ولكنهما –بالقطع– ليسا في التوجيهي، أطلق الأول صفيرًا متقطعًا من فمه، وقال الثاني: يا حلو.. يا أبو شعر حرير.

وأخذا يغنيان:

في موجة عبير والشعر الحرير

على الخدود يهفهف ويرجع يطير

أدركت مريم أنها المقصودة بهذه (المعاكسة)، فحدجتهما بنظرة نارية، وقد جمعت ما بين حاجبيها، مما أشعرهما بصرامتها وازدرائها لهما، فالتجما وما عادا لمثلها، كما لم يعد غيرهما أيضًا، وكأن أمرًا الزاميًا قد صدر لكل المراهقين ألا تقتربوا من مريم محيسن، وأخذ المراهقون يتداولون فيما بينهم، هذه البنت لها هيبة تجبر أي إنسان أن يتجنبها، ولا يقف لها في طريق، فضلًا عن أن يرشق سمعها بكلام الغزل أو المعاكسة.

(مدرســـة الزهـــــراء)

أنهت مريم مرحلتها الإعدادية بتفوق، وكان حال أسرتها على ما هو من شحّ المورد وكثرة العيال، وكان والدها يحاول أن يزيد دخله بمزيد من الكد والجهد، وكانت مريم تقدر ذلك، فلم ترهق أباها بطلب من طلبات المراهقات ، فلا تكاد ملابسها تزيد عن قطعتين أو ثلاثة، ولها حذاء واحد، ولم تكن تطمح إلى حلي أو أساور أو خواتم، وتأكل مما يأكل منه أبواها، ومجرد أن تصل البيت تأخذ في مساعدة والدتها في إدارة شئون البيت، والتي كانت في الغالب بسيطة شأن بيوت مستوري الحال.. وكانت تخفف عن أمها أعباء الصغار، تجمعهم على الطاولة الصغيرة، وتجلس معهم على فراش بسيط على الأرض، وتشعل مصباح الكيروسين الخافت وتبدأ في مراجعة دروسهم، وعمل الواجبات الدراسية لهم، فإذا ما انتهت من واجباتها تجاههم، التفتت إلى كتبها ودراستها.

كان هذا المشهد يتكرر كل ليلة، ارتبط أخوتها وأخواتها بها ارتباط الكتاكيت بأمهم.

تعلمهم الحركة، ومخالطة الناس، وتضع على ألسنتهم كلمات تنضح أدبًا وتهذيبًا ، وبصوتها الخفيض الحنون كانت تلبي طلباتهم ، ولم يسمعوا منها إلّا (نعم) قبل الطلب (وحاضر) بعده.

فإذا كانت (الطالب) هي أمها خفَّت بسرعة قبل أن تصدر لها أمرًا، وكذا والدها، بلا إبطاء ، فإن كانت مشغولة تركت ما يشغلها على الفور، وانتقلت إلى أمها بكل خفة ورشاقة وابتسامتها تملأ محياها.

ولم يختلف سلوكها مع مدرساتها عن سلوكها مع أبويها، كما لم يختلف سلوكها مع أخوتها وأخواتها عن سلوكها مع زميلاتها في المدرسة فلم تتردد عن تلبية طلب بالمساعدة، ولم تبخل في تقديم عون رغم قلة ما في يدها.

فكانت موضع اهتمام وإعجاب حتى من طالبات المدرسة اللاتي يكبرنها، حتى أصبحت كالياسمينة التي يفوح عطرها في المكان، بصرف النظر عمنَّ فيه.

دخلت مريم المدرسة ذات يوم شات، شديد البرودة، وفي قدميها حذاء صيفي ، وهو ما تملكه دون غيره.

نظرت إليها مديرة المدرسة بإشفاق.

*مريم.

*نعم.

*تعالي.

*حاضر

حاولت أن تعطيها ثمن حذاء شتوي فهزت رأسها بإباء مهذب، وقالت: لست في حاجة إليه يا أبلة.

هناك من هي أحوج منى له..

ولم تفلح المديرة في ثنيها.

***

في السنة النهائية من المرحلة الإعدادية كان قد جرى في النهر الفلسطيني مياه كثيرة.

فقد أعلنت إسرائيل عن نيتها تحويل مجرى نهر الأردن إلى النقب، مما استفز جمال عبد الناصر، فدعا إلى مؤتمر قمة عربي لتدارس الأمر ؛ مما جعل قلب مريم يرقص فرحًا، فها هو الزعيم الكبير يجمع قادة العرب، الإثني عشر، ليكون المجموع ثلاثة عشر زعيمًا، هم معقد الأمل في تحرير فلسطين، وفعلًا قد انعقد المؤتمر في القاهرة يومي 13 يناير، 14 يناير سنة 64 ، وخرجوا بقرار يقرب الفلسطيني من تحقيق أمله في تحرير بلاده، كان القرار قد أدخل السرور إلى كل بيت، ألا وهو إنشاء الكيان الفلسطيني الذي يتولى بناء جيش التحرير الفلسطيني، وكلف برئاسته زعيم فلسطيني، وصف بأنه المجاهد الكبير، الذي يقرع اسمه لأول مرة أذن كل فلسطيني إلا أقل القليل.. إنه أحمد الشقيري!! سعدت مريم كما سعد كل فلسطيني ،وأخذت ترسم صوره من خيالها لهذا الزعيم.

أهو مثل عبد القادر الحسيني؟ أم فوزي القاوقجي؟ أم حسن سلامة؟ أهو مثل عبد الناصر أم سعود أم القوتلي أم حسين؟

إلى أن جاءت صورته في مجلة القوات المسلحة المصرية، التي كانت تصدر شهريًا، وتحرص مريم على اقتنائها .. لتقرأها سطرًا سطرًا.

واتفق الزعماء أيضًا على بناء سد على نهر الأردن ليحمي مياه النهر من أن تسرقها إسرائيل، كما سرقت فلسطين، ولتظل المياه للعرب لتروى أراضي سورية والمملكة الأردنية الهاشمية، ولقد طربت مريم عندما علمت أن الزعماء قد أطلقوا على هذا السد اسم (خالد) فذهب عقلها إلى خالد بن الوليد، فامتلأت تفاؤلًا وأملًا على أنه من رحم هذا السد سيولد الفاتح الجديد خالد الفلسطيني، بل وذهبت إلى أن تحلم أن تكون زوجة لهذا البطل المأمول، فقد أصبح فتى أحلامها ،وفي هذه السنة أيضًا ذهب وفد من وجهاء غزة لمقابلة الزعيم عبد الناصر والذي قال بشجاعة أدبية جارحة أبكت مريم، وانقبض لها صدور الزعماء الفلسطينيين والمدرسين والمدرسات، فقد قال لهم بكلمات قاطعة (أنا لا أملك خطة لتحرير فلسطين) مما رسخ في نفس مريم إلى أن الشعب الفلسطيني فقط هو من يجب أن يحرر بلاده ، وتسمرت عيناها في فضاء غرفتها ذات الضوء الخافت، أمام الجندي الواثب من القدس إلى يافا، على تلك الخارطة العظيمة على واجهة أول جدار من جدر مدرستها الإعدادية.

وأما الثالث فقد عاد وفد الشخصيات الفلسطينية إلى الأمم المتحدة لشرح قضيتهم بخفي حنين، إذ لم يسمح لهم بدخول قاعة الجمعية العمومية فضلًا عن الحديث، إلا مع بعض هواة الصحافة.

بكت مريم على أن تفشل يسرى البربري، وعبد الله الغرابلي والأستاذ إبراهيم أبو ستة (المحامي).

نعم ، هي لا تعرف أحدًا منهم، إلا أنهم فلسطينيون.

***

(مريـــم الفتـــاة)

تشبثت مريم –بكل أدب– برأيها في رفض منحة مديرتها لتشتري حذاءً جديدًا.

كانت مشدودة القامة، خافضة البصر، وبصوت خفيض ، وبابتسامة رقيقة حاولت أن تقنع مديرتها بإصرارها وسببه الوحيد: هناك من هي أحوج مني،

كم أنت كبيرة يا مريم، قالتها المديرة بإعجاب شديد، واحتضنها وقبلتها مربتة على رأسها وظهرها ، لتصبح الأثيرة عندها على مدى السنوات الثلاث..

اغتنمت مريم وجودها مع المديرة وسألت: أبلة؛ هل بدأ بناء سد خالد.

فوجئت المديرة، ولم تدر ماذا تقول ، فتمتمت: إن شاء الله يا مريم

لم يشبع الجواب مركز اهتمام مريم، فبدت عليها ملامح خيبة الأمل وتملكتها الحيرة.

هل المديرة تجهل الحقيقة؟ أم لا تريد أن تصرح بها؟ وفعلًا كان الاجتماع الثاني، فقد دعتها مديرتها على انفراد ذات يوم..

- يا مريم أتذكرين سؤالك عن سد خالد؟
- نعم يا أبلة.

- إن الحقيقة يا مريم محزنة، فإن من يعيب على قرارات الزعماء العرب قد يذهب وراء الشمس، حاولي يا بنتي أن تجتنبي ما يلفت نظر المخابرات لك: وتنهدت ، وأمرتها بالانصراف.

حملت مريم همها إلى إخوتها فقال لها (أخوها الصغير) أسعد: فعلًا هذه المديرة عاقلة يا مريم.

فإن السد لم يُبن، ولم ينجح مؤتمر القمة في فعل شيء، بل التضامن العربي أكذوبة يا مريم، فها هي فلسطين تتعرض كل يوم لعدوان ولا تضامن.

وهناك حرب بين السعودية ومصر، وبين الأردن ومصر، ألم تسمعي بما يجري على أرض اليمن.

ألا تسمعين إذاعة الأردن كيف تجعل من عبد الناصر جبانًا خائنًا، لا يستطيع أن يحمي حدود بلده، وتحميها له قوات الطوارئ الدولية، وبالمقابل ألا تسمعين ما تقول الإذاعات المصرية عن الملك حسين والملك سعود؟

ألم تسمعي عن الحرب العراقية وماذا فعل عبد الكريم قاسم بالملا مصطفى البرزاني؟ وماذا فعل عبد السلام عارف من بعده؟ انبهرت مريم من تدفق أخيها بهذا الكم من المعلومات، فمن أين له بكل هذا !!!

كانت تستمع بشغف كمن يطلب المزيد، إلا أنه ربت على خدها ضاحكًا: تعلمي يا سيدتي تعلمي ، ورفع رأسه في تباهٍ وتيه، وانصرف وهو يردد أغنية المارد العربي، التي يصدح بها مذياع العم أبو خليل.

المارد العربي .. في العالم العربي.. وطنو في كل مكان... في مصر في عَّمان.. والكويت والسودان.. والمشرق العربي... المارد العربي.

أخذ عقلها يقارن بين ما سمعت من أخيها وبين كلمات الأغنية وسألت: ما هذه الأكاذيب والتضليل؟

يا حبيبي يا أخويه

أحدثت كلمات أخيها دوارًا ما بعده دوار!! وأرادت أن تعرف مصادره.

قال لها ببساطة : نشرات الأخبار؟ وشيء من المقارنة بين الشعارات وواقع الحال.

وتجرأ أكثر وهو ينقر بسبابته على رأسها.. كبرى دماغك يا أبلة، ولا تعيشي في أوهام الوحدة والجيوش العربية التي ستحرر لنا فلسطين.

ألم تسمعي خطاب السيد أحمد الشقيري... رئيسنا وهو يلعن سلسفيل الملك حسين؟

كنت تصفقين له أمس!! أليس كذلك.. ألم يفكر في أن الملك يحكم الضفة الغربية، بما فيها القدس ومن يسكنها من الفلسطينيين؟ وألا يعلم أنهم ثلاثة أو أربعة أمثال سكان القطاع؟

أما رأى ماذا فعل بهم عندما طالبوا بتسليح القرى التي هاجمها اليهود؟

أما سمعت الشقيري وهو يتحدث عن السموع ويالو وبيت نوبا؟ هل عرفت ماذا فعل بهم الملك حسين؟ فلماذا لم يحسب لذلك حسابًا؟

لقد سألت أستاذنا، فأجابني بتفصيل ...اسألي ، واقرأي يا ماما.

شعرت مريم أن أخاها يكبرها بمائة عام، وليس أصغر منها..

أنشبت الغيرة أظافرها في صدرها إلى جانب الانبهار بأخيها.. لا بل بالفخر، وعقدت العزم أن تكون مثله .. بل وزيادة.

فأخذت تجمع الخبر على الخبر .. والمعلومة على المعلومة، حبب إليها أخوها القراءة الجادة، وذلك على خلاف زميلاتها اللاتي انصرفن إلى روايات إحسان عبد القدوس، وأشعار نزار قباني.

ترسخ في وجدانها أن المثقف هو الذي سيحرر فلسطين، وأخذت تحدث زميلاتها.. صار لها عقلية تحليلية، وبمجرد أن تصل البيت تأخذ في سرد حواراتها مع زميلاتها ومدرساتها لأخيها الذي كان يوافقها أحيانًا، ويخالفها غالبًا، كان يغيظها، ولكنها سرعان ما تبدد غيظها بابتسامة هادئة وهمسة أم حنون.. يا حبيبي يا اخويه ، ويندفع الدم إلى وجنتها وهي تحاول تقبيله، وهو يحاول التملص .. وينتهي ما بينهما إلى ضحكاته وابتسامتها، ويا حبيبي يا اخويه.

***

(الفتـــــوة)

نادت الاستاذة سعاد الأعظمي مديرة المدرسة مريم وقد أخذت ركنًا بعيدًا عن زميلاتها اللاتي كن يمارسن مختلف الألعاب في حصة التربية الرياضية.

- يا مريم .. لماذا لا تشاركين زميلاتك.

أجابت مريم بتوقير وحياء : لأن الأستاذ محمود هو المدرب، وحبذا لو كانت معلمة هي من تقوم بالتدريب.

- وماذا في ذلك؟
- هكذا علمتني والدتي.
- مريم هذه مدرسة ، والأستاذ مثل والدك.
- سامحيني.. لا أستطيع.. وأردفت ، أنا أشارك في حصة الفتوة.

قالت مريم ذلك وقد شدت من قامتها، بلباس الفتوة التي تسلمته من المدرسة مقابل أربع جنيهات وربع الجنيه، تنورة زرقاء من قماش قطني ، وقميص رصاصي اللون، مع حزام عريض في وسطها، وقد أحاط شعرها الأسود بوجهها، كقطعة ليل أحاطت بالقمر، فبدت جميلة في نظر المديرة.

فأحاطت كتفيها بذراعها، واصطحبتها إلى مكتبها.

- أنت بنت ممتازة يا مريم.
- شكرًا يا أبلة.
- هل يمكن أن تنضمي إلى كتيبة الفتوة.
- نعم وبكل سرور.

فغمزت المديرة بعينها وقالت : المدرب هو الملازم مصطفى وهو شاب مصري.

ليس في ذلك شيء، أما يدربنا على العسكرية والحزم وعلى السلاح، وثم هناك الأبلة سوزان التي تدرس للكتيبة الإسعافات الأولية، وهناك الأبلة فاطمة التي تعطي دروسًا في التاريخ، والأستاذ جلال الذي يدرس مادة الدفاع المدني.

ضحكت المديرة بصوت مسموع.. أنت متابعة بشكل جيد يا مريم...

اندمجت مريم في كتيبة الفتوة.. ووجدت فيها ما تتمنى، وأخذ يداعب خيالها ذلك الجندي الواثب من القدس إلى يافا لتحرير فلسطين... وذهبت بها أحلامها في يقظتها... أنها هو.

***

(سيـــد قطـــب)

أنهت مريم سنتها الأولى في مدرسة الزهراء بتفوق، وأدرج اسمها ضمن لوحة الشرف للأوائل العشر من طالبات المدرسة.

ونظمت المدرسة لهن احتفالًا لتكريمهن بحضور أولياء أمورهن، ومنهم والدها.

تسلمت مريم جائزتها، مع عبارات المديح التي جعلت من رأس أبيها يلامس السماء كما قال لأمها وإخوتها وأخواتها عند عودته بها.

وتقدمت إليها أمها معانقة ومقبلة أخوها (أستاذها الصغير) فقبلها على جبينها هامسًا: ما حصلت عليه من درجات هي لي ، من المعلومات التي حشوت رأسك بها، ليس من شطارتك ! فقالت: لا، نصفها فقط.. يا حبيبي يا أخويه، واغرورقت عيناها بالدموع.

سمعت مريم تعليقًا غير عادي من صوت العرب، بصوت المذيع ذي الصوت الهادر المتميز المتدفق؛ أحمد سعيد... كان حول تنظيم سري إجرامي يقوده سيد قطب، ينوي قلب نظام الحكم بالتآمر مع حزب الشيطان الإسلامي الذي يقوده الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود!!!

التقطت أذناها ألفاظًا لم تعهدها.. أخذت تتابع المحاكمات –يوميًا– التي كانت تذاع على الهواء بعد آذان العصر.

حفظت ذاكرتها اسم اللواء محمد فؤاد الدجوى رئيس المحكمة .. كان كثير التندر والسخرية من أفراد التنظيم ، وفوجئت مريم أن من بين أفراد التنظيم نساءً مثل؛ زينب الغزالي وحميدة قطب، وتردد اسم كمال السنانيري، وأمينة قطب، ومحمد قطب.

وقف عقلها حائرًا ، لماذا سيهدم سيد قطب الكباري ودار الأوبرا، ويقتل عبد الحليم حافظ، وأم كلثوم، وعبد الوهاب، وفاتن حمامة؟

ولماذا سيحرقون الجامعات؟ أمن أجل أمريكا زعيمة حزب الشيطان.

ولماذا سيقتلون جمال عبد الناصر؟ أليس هو الزعيم الوحيد الذي يتحدى الاستعمار والإمبريالية؟ أهذا هو الإسلام حملت هذه الأسئلة إلى معلمة التاريخ الأبلة فاطمة، التي لم ترد عليها قائلة لها: هذه أمور أكبر من عقلك، واهتمي بدروسك يا مريم.

لم تتبدد حيرتها حتى جاءها خبر إعدام سيد قطب، وعلمت أن الرئيس العراقي عبد السلام عارف حاول منع إعدامه فلم يفلح، رغم صداقة عبد الناصر له.

استمعت إلى أخيها الذي لا يملك الحقيقة، فلقد ضنَّ أستاذه عليه بها، ولأول مرة تجد أخاها عاجزًا عن الإجابة !!!

علمت أن سيدًا هذا قد ألف كتابًا أسماه (معالم في الطريق) أمر فيه اتباعه بكل ما نسبه إليه محمد فؤاد الدجوي، فتشوقت لقراءة الكتاب.

قال لها الأستاذ عبد الرؤوف بلهجته المصرية الصعيدية: سيد هذا يا ابنتي فسَّر القرآن الكريم.

ازدادت حيرةً و حزنًا .. فسألت: وهل من يفسر القرآن يقتل الزعيم عبد الناصر؟ سكت الرجل ولم يتابع، رغم إلحاح مريم، وأمرها بالذهاب ..

وفي عينيه شفقة عليها، وقد اعتاد على أسئلتها الجادة وحوارها المؤدب عن اليهود والصهاينة والمنظمات الصهيونية، وتجد عنده الكثير مما لا تجده عند الأستاذة فاطمة معلمة التاريخ.

قرأت مريم أخبار المحاكمات والإعدامات في جريدة (أخبار غزة) التي كانت تصدر في غزة.

كما قرأت تفاصيل أكثر في الجرائد المصرية، التي كانت تأتي يوميًا من مصر إلى مكتبة المدرسة. (الأهرام– الأخبار– الجمهورية– روز اليوسف– المسا).

ورأت ثاني يوم الإعدام صورة سيد، وصورة اللواء الدجوي ، الذي قال لها أبوها عنه : إنه كان حاكمًا لقطاع غزة سنة (56) وعندما بدأت رياح الحرب تهب على غزة عينه عبد الناصر قائدًا عامًا للجيش الذي يتولى حماية غزة، وما أن هاجم اليهود القطاع حتى فر الدجوي هاربًا مذعورًا، وقام اليهود باحتلال القطاع، وقتلوا المئات من الجنود المصريين، ونهبوا معسكرات الجيش واستولوا على الأسلحة.. هذا في العدوان الثلاثي يا مريم..

كانت مريم تستمع، بينما عقلها مشغول في سيد هذا الذي ينوي قتل زعيم الأمة العربية جمال، الذي يصدح المذياع بالأغاني التي تمجده صباح مساء..

–يا جمال يا حبيب الملايين... ناصر... صورة، حكاية شعب.

ليس هناك مغنٍ إلا وغنى لعبد الناصر، وما أكثر الكتب التي تزدحم بها مكتبة المدرسة والتي تتحدث عبد الناصر!!

إذن عبد الناصر بطل، وسيد هذا خائن، وأما فؤاد الدجوي فقد كلف عبد الناصر ليحاكم سيدًا إمعانًا في إهانته، فالدجوي جبان كما قال أبوها، ومن يحاكمه الجبان فهو خائن ومتآمر ومجرم.

شعرت بالراحة عندما وصلت في تحليله إلى هذه النتيجة، وهدأ عقلها عن التفكير، وكف رأسها عن الدوار.

جاء أخوها هامسًا: مريم تعالي لأخبرك بحقيقة سيد ؛ هو من الإخوان المسلمين، وهم أبطال في حرب سنة 48 ، وهم الذين صنعوا ثورة 23 يوليو وليس جمال وحده ، لكنه أراد أن ينفرد بالحكم، فأزاحهم، وشنق قياداتهم سنة 54، وسجن عشرات الآلاف منهم لسنوات طويلة ؛ مؤبدات ، وعشرات وعشرينات. وها هي الجولة الثانية، فألصق بهم نفس التهمة ، محاولة اغتياله ، خونة، والحقيقة غير ذلك.

سألته : ما معنى رجعيون؟!!

أجاب : يا بنت شغلي عقلك.. أنا مش عارف!!

هيك قال الأستاذ عطية، وأحببت أن أخبرك، وأوصاني ألا أعلم أحدًا ، بأنه هو من قال لي ذلك ولكنك تلميذة (لي) صادقة، وثقة، ولست ثرثارة، واحذرى أن تذكري اسمه.

- سألت: لماذا؟
- أجاب : من الممكن أن تتسبي له بمؤبد، أو إعدام، فلقد قال لي: مخابرات عبد الناصر في كل مكان في غزة، تحاول أن تصل إلى أي شخص يذكر الإخوان المسلمين بخير، فتذهب به إلى ستين (داهية) هكذا قال !!

***

(أحمد الشقيري)

انطوت السنة التي أعدم فيها سيد قطب، والتي انتقلت فيها مريم إلى السنة الثالثة الثانوي، بتفوق أيضًا ، رفع رأس أبيها كالعادة .. وأصبحت واحدة من أذكى الطالبات وأمهرهن في كتيبة الفتوة.

تدربت على الرماية وعلى الاسعافات الأولية.. وعلى الدفاع المدني وخاضت في تفاصيل العصابات الصهيونية ، كان الأستاذ عبد الرؤوف مرجعيتها، أعطاها لتقرأ قصة الطريق إلى بئر سبع للكاتبة الإنجليزية (إيثيل مانين) التي تحكي قصة طرد الفلسطينيين من ديارهم بقوة السلاح، وعن عذاباتهم، والإجرام الصهيوني، ثم عن شجاعة الشعب الفلسطيني، وتصميمه على العودة إلى دياره.

وأعطاها كتاب هكذا ضاع الشرق الأوسط للكاتب اليهودي الفريد ليلنتال.. قرأته بنهم.. كرهت هاري ترومان ، ذلك الرئيس الأمريكي المجرم الذي مارس الضغوط الهائلة على الدول الصغيرة كي تؤيد تقسيم فلسطين ما بين اليهود، وأعطاهم 56% من أرضها، وأبقى لأصحابها 44% ، ذلك القرار المشئوم الذي يحمل رقم(181)، ثم أعطاها كتبًا عن أبطال الجهاد المقدس وفي مقدمتهم عبد القادر الحسيني ، وكيف جمع هذا الرجل الشجاع السلاح بعد أن تخلت عنه

الجامعة العربية، وأحبته عندما علمت أنه مزق شهادته الجامعية التي حصل عليها من الجامعة الأمريكية في القاهرة، ذلك لأن أمريكا هي سبب البلاء. ياه..كم كان واعيًا .

***

أعلمتها الأستاذة سعاد بأنها ستقود كتيبة الفتوة بعد أسبوع في استقبال الزعيم أحمد الشقيري.

تملكها الفرح وأخذت تعد لذاك اليوم عدته.

حرصت على أن (تكوى) زي الفتوة ، وخاصة قبعته الأشبه بالقارب، الذي سيحملها ذات يوم إلى يافا عبر بحر غزة، وكانت من نفس قماش تنورتها.

ازدان قطاع غزة بصور الزعيمين عبد الناصر وأحمد الشقيري المؤسس للكيان الفلسطيني ، والمنشئ لجيش التحرير الفلسطيني، والذي جمع للصندوق القومي الفلسطيني ملايين الدولارات .. علمت من أبيها أن الشقيري سيفرض التجنيد على أبناء قطاع غزة؛ ممن تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة عشر و الخامسة والأربعين سنة.

وكيف لا؟ ألا يتطلب تحرير فلسطين جيشًا؟ وهل سيأتي بهم من أفريقيا، أو من بلاد الواق الواق؟ لا .. بل من أبناء الشعب الفلسطيني.

سرحت مريم بخيالها كالعادة.. وتصورت نفسها جنديًا في هذا الجيش، تحمل السلاح، وتقتل اليهود، ثم تعود إلى المواقع الخلفية، حيث المستشفى الميداني، الذي قرأت عنه في دروس الفتوة، وخاصة مادة الإسعافات الأولية على يد الأبلة سوزان، التي أحبتها كثيرًا، لأنها تركت بلدها مصر، وجاءت لتعلم بنات فلسطين ما يساهم في تحرير بلادهم.

وأخذها خيالها إلى ذلك الجندي الواثب من القدس إلى يافا، فتنهدت قائلة: ليتني في القدس.

جاء أحمد الشقيري في موكب كبير.. وبرفقته سفير الصين بالقاهرة، الذي وقف إلى جانبه منتصبًا، بقامتيهما القصيرتين وجسميهما البدينين، وقد تشابكت أيديهما إلى السماء ، كان الشقيري يلبس الزي العسكري، وكان السفير يلبس الزي الوطني لبلاده !!

اصطفت كتيبة الشبان، في ثلاث قاطرات، كما اصطفت على امتدادها كتيبة الفتيات وفي مقدمتها مريم، جاءت فرقة الموسيقى العسكرية لتعزف النشيد الوطني ...

عائدون.... عائدون... إننا لعائدون..

كانت مريم قد خاضت عدة تجارب مع زميلاتها للحفاظ على الانضباط العسكري، والمشية العسكرية.. إنها الفتوة.

شعرت أنها تحلق فوق السحاب... كانت قامتها مشدودة مثل حربة بيد فارس مغوار.. عنترة... الزير سالم... على بن أبي طالب.. ولكنها مصوبة نحو صدر يهودي، لتخترق قلبه وتنفذ منه إلى ظهره، ومنه إلى صدر آخر فثالث، تريد مريم (الحربة) أن تخترق كل صدور الصهاينة بضربة واحدة يسددها أحمد الشقيري.

مرت على الكتيبة فرقة القرب العسكرية بتشكيلاتها، وسط جموع الشعب الفلسطيني الذي جاء إلى ملعب اليرموك ، ليشاهد عروض الفتوة وتشكيلاتها، الجيش وطوابيره وليستمع إلى خطاب زعيمه.

لم تشعر مريم بالإرهاق ولا بحرارة الشمس اللاهبة، ولا الرياح الخماسينية التي تسبق فصل الربيع.. لم تشعر إلا أنها تحلق فوق السحاب.. وأنها ذلك الجندي الواثب لتحرير فلسطين، أو أنها الحربة التي يسددها الشقيري نحو صدور اليهود.

صرخ القائد.. سلام سلاح.

أدت مريم ما أمر به القائد بإتقانٍ كبير، ثم جاءت الصرخة الثانية:

انتباه... كتفًا سلاح.

والثالثة.. استرح.. .. استعد.. استرح.

وجاء من بعده صوت الشقيري الهدار ليعلن التجنيد الإجباري، وسط هتاف صاخب وغابات من السواعد الملوحة، والتصفيق الحاد الذي جاوز عنان السماء.

فلسطين على مسافة ما بين زناد البندقية وفوهتها فقط.

كان على المنصة الشيخ مصطفى إسماعيل الذي قدمه الشقيري بصفة قارئ الثورة والثوار.

أدركت أن الثورة هي ثورة 23يوليو، والثوار هم عبد الناصر وصحبه.

خفق جفنها ، إذ تذكرت إعدام سيد قطب، وكلام أخيها عنه ، ولكنها تمالكت، فهي في طابور عسكري سيحرر فلسطين لا محالة. ثم قدم حامد أبا ستة ، ذلك الفلسطيني الشجاع، الذي قدم تبرعًا للصندوق القومي لتحرير فلسطين بمقدار ثلاثة أرباع مليون دولار من ماله الخاص، فهو مهندس ورجل أعمال، وضع ثروته بين يدي الشقيري ليحرر بها فلسطين.

تمنت مريم أن يكون لها مثل هذا المال وأكثر، لتفعل ما فعله حامد أبو ستة، فالتحرير يحتاج إلى أضعاف أضعاف هذا المبلغ، تمنت أن يكون لها جبل من ذهب ، فتنفقه لتحرير فلسطين...وتذكرت شعار الحركة الصهيونية...(ادفع دولارًا لتقتل فلسطينيًا)...

إذن؛ فلماذا لا يكون لنا نفس الشعار، ونفس الفعل ، بل وأكثر؟ ولا ضرورة لأن يكون الفلسطيني ثريًا كي يبدأ في التبرع لتحرير فلسطين، بل كل على قدر استطاعته.

تنبهت مريم على صوت الشقيري وهو يكيل المديح لعبد الناصر، ويكيل الشتائم للملك حسين واصفًا إياه (بالملك الصغير الحقير المتزحلج المتدحرج!!). فخففت جفونها من جديد ، ولكن بسرعة أشد من سابقتها، ليته ما قال هذا ، فإن من شأنه أن يضر بالقدس وبسكان الضفة الغربية من الشعب الفلسطيني ، ويقضى على الوحدة العربية، والتضامن العربي من أجل تحرير فلسطين.

كانت إذاعة فلسطين من القاهرة تبث خطاب الشقيري، وكانت تقدمه أصوات من غزة.. على هاشم رشيد ، وحسين أبو شنب، ويلعلع صوت مهدى سردانه:

أرضي أبويه يا خي هي أحلى شيء

من ورا المنطار من ورا المنطار

راعي بغنامو ماشي بفكر ارضو قدامو.. بلونها الأخضر

قال وجوه عيونو دمعه ليش ما أرعى في أحلى مرعى؟

من ورا المنطار

وكان عريف الحفل الشاعر الكبير هارون هاشم رشيد.. ابن منطقة الزيتون، كادت مريم تطير فرحًا فهي ابنة شارع المنطار ، والمنطار تلة بينها وبين بيتها خطوات.. ترى الأرض المحتلة من فلسطين مجرد أن تصعد عليها، انفعلت بالأغنية وأخذت تدندن بها ، كلما وجدت فراغًا من الدراسة ، كما تدندن بأغنية ياسين محمود :

أرض بلادي ما احلاها مليانة ورود

والزنبق ممدود فيها العود فوق عود

والنور يلي بيرويها ملوش حدود

مليانة مليانة ورود مليانة ورود

اختلف الناس في قانون التجنيد الإجباري... لقد كان لفلسطين جيش يسمى (المتطوعون) وكانت بعض النساء يغنين في الأفراح

يا احمد عبد العال يا احمد عبد العال يا لابس مطوَّع يا احمد عبد العال

لا كنوز ولا مال لا كنوز ولا مال بتنسيني بلادي لا كنوز، ولا مال .

ورغم ما كان يتسلل إلى سمعها من غناء المطربة الفلسطينية ابتسام حلمي، وهي تغنى للجيش الفلسطيني، إلا أن فريقًا آخر من الشعب وقف موقف المتردد في قبول هذا القانون، وخاصة من كبار السن، فلقد مرت بخاطرهم هزيمة الجيوش السبعة في حرب 48 أمام عصابات صهيونية، ولم يتصد بالفعل لتلك العصابات إلا المجاهدون من الشباب الفلسطيني والشباب العربي ومن الإخوان المسلمون، أمثال؛ الفرق المصرية وعلى رأسها كامل إسماعيل الشريف ويوسف طلعت ومحمد فرغلي ومحمود لبيب.. والفرق العراقية وعلى رأسهم محمد محمود الصواف.. والسورية وعلى رأسهم مصطفى السباعي، والأردنية وعلى رأسهم الشيخ عبد اللطيف أبو قورة ، والفرق السعودية التي يقودها القائد عبد الله بن نامي، أما الجيوش فكان يقودهم خونة وعملاء ، وهم هم، لا يزالون في الحكم، هم أو تلاميذهم، سبعة جيوش قد انهزمت أمام عصابات الأرجون وشتيرن والهاجاناه.

ولم يبق لنا إلّا البكاء والنواح.

تسابق هؤلاء الرجال من كبار السن إلى إعداد الأوراق وأحيانًا تكون مزورة، التي يتمكن بها الاستفادة من الاستثناء في قانون التجنيد الإجباري؛ مثل المرض أو أنه وحيد أبويه، أو الطالب الجامعي. وأما الأكثرية، من الشباب فقد اندفعوا نحو مراكز التجنيد، التي انتشرت في كل مدن القطاع وقراه.

رأت مريم كل ذلك أو تابعته من خلال أخيها وأستاذها، كما يحب أن يطلق على نفسه على سمعها، إغاظة لها حدثها عن أن بعضهم أميون أو معاقون أو معتوهون.

وحدثها عن أن الطوابير يحدث فيها حركات تضحك الثكلى، والله يا مريم شفت الشاويش وهو يصرخ (لليمين در) فإذا بعدد من المجندين يدور يسارًا.. وهات يا ضحك، والشاويش يصرخ .. وبعدين صار يسبهم ويلعن سلسفيل آبائهم.. ولك أن تتصوري – يا بنت كتيبة الفتوة– أن الشاويش (المدرب) صار يضرب فيهم.. بل بصق في وجه أحدهم ، ويناديهم : يا خرعين عايز رجالة.

- قاطعته .. هكذا العسكرية.
- قال : هذه إهانة لكرامة الآدمى ، التي لا بد أن تظل مصونة حتى تزرع في قلب الجندي حب الوطن والتضحية في سبيله. وهذا لن يتحقق من جندي يبصق قائده في وجهه ، فالجندي في هذه الحالة يتمنى أن يطلق أول رصاصة نحو صدره ، عند أول اشتباك مع اليهود.

- اسكتي .. اسكتي... عاملة حالك (فتوة) هل ترضين أن يقول لك الملازم مصطفى : يا طلاينة ؟

- فضربت مريم فاها متسائلة.. ما معنى طلاينة ؟

- قال بعجز: لا أعرف .. دعيني أسأل الأستاذ ، فإلى اللقاء يا.. فتوة.. وربت على خدها كالعادة، وانطلق ضاحكًا، وهي تتبعه بعينيها المغرورقتين (حبًا)، بالدموع، وتردد: يا حبيبي يا اخويه.

كان هذا الفتى مسيطرًا على عقلها ووجدانها، سيطرة لا تستطيع مقاومتها، ويثير في نفسها أكثر من تساؤل .. هل هو واعٍ حقًا أم جبان؟

مسحت هذا الخاطر(فورًا) بهزة من رأسها، كما لو أن غبارًا قد أصابه، فأرادت التخلص منه بتلك الهزة.

مرت ثلاثة أشهر بالتمام والكمال على خطاب الشقيري ، والذي تضمن مشروع التجنيد الإجباري.

ثلاثة أشهر تقاسمت الرغبة قلب مريم، حتى الهوس في أن تكون بين المجندين، متسائلة لماذا استثنى القانون المرأة الفلسطينية؟ أليس لها دورًا ؟ أما كان لها دور في حروب النبي صلى الله عليه وسلم؟ أليست نسيبة بنت كعب امرأة ؟ ليست جميلة بو حيرد امرأة ؟

إلى جانب رغبة أخرى تملكتها حتى الهوس أيضًا؛ في ألّا تكون في ذلك الجيش، الذي يبصق القائد في وجه جنوده.

ويصرخ فيهم: يا طلاينة يا خرعين ، ستهدران كرامة الجندي.

عرفت من أخيها أن الطلاينة هي كلمة الجمع العامية لكلمة ايطالي، وصارت تستعمل كشتيمة للجنود باعتبار أن الايطاليين كانوا الأسرع هزيمة أمام الماريشال مونتجمري من أحلافهم الألمان بقيادة روميل، في معركة العلمين تلك المعركة التي وضعت حدًا لألمانيا بقيادة هتلر وأحلافهم، وفي مقدمتهم إيطاليا بقيادة موسوليني، ثم اليابانيين بقيادة هيروهيتو، وقد كان روميل من أشجع القادة، وأما الايطاليون فكانوا في منتهى الجبن!!!

وأما (الخرعين) فهي أيضًا جمع خرع (بكسر الخا والراء)، فهي بمعنى جبان وخواف بالعامية المصرية.

احتضنت عينا مريم أخاها وهو يتدفق بالمعاني يوم أن قال لها ذلك ، فاستقرت على ألا تكون في هذا الجيش الذي ينعته قادته بالطلاينة والخرعين، ويبصقون في وجهه.

وقبل انقضاء الأشهر الثلاثة ظهر عبد الناصر في أسبوعها الأخير بموقف القائد الفذ المتحدي.

فقد أمر قوات الطوارئ الدولية بمغادرة الأراضي المصرية من سيناء حيث مضائق تيران.

وأمرهم بإخلاء مواقعهم في (بوغاز – باب المندب) إذن ستختنق اسرائيل. وحرك الجيش المصري إلى سيناء وغزة، دبابات ومدافع وعربات جند وعربات نقل، جاء الآلاف منهم إلى غزة .

ولفت أنظار الفلسطينيين أن أكثرهم من أمثال من ذهبوا إلى مراكز التجنيد الاجباري... فلاحون بسطاء، و صعايدة أكثر بساطة ، أميون، لا يتقنون لليمين در ولا للشمال در، ولا تزال طين الحقول على أصابعهم. ولا تزال جلابيبهم فوق أجسادهم، وتحت الزي العسكري، الذي استلموه على عجل. ورأوا دبابات (الشيرمان) والتي قال عنها بعض كبار السن: إنها من مخلفات الحرب العالمية الأولى أو الثانية، تمشى مترين ثم تتوقف ساعة. وأما البنادق التي يحملها الجنود فهي

من نوع (لي انفيلد 303) الإيطالية التي تشبه نبوتًا طويلًا على ظهر شيخ الغفر في أقصى صعيد مصر ، ولا بد أن يكون معه قضيب رفيع من الحديد الصلب، حتى يدخله في ماسورتها كلما توقفت الرصاصة ليسلك لها الطريق .. وما أكثر المطبات!!

بدا عبد الناصر بطلًا مغوارًا أمام صحافة العالم، وهو يتحدى إسرائيل ومن وراء إسرائيل.

سأله أحد الصحافيين الإنجليز: هل تنوى أن تخوض حربًا مع إسرائيل؟ فأجاب بنشوة وابتسامة عريضة .. إحنا بنقول للحرب: أهلًا وسهلًا. استطرد: أنا مش خرع زي المستر إيدن، وكان رئيسًا لوزراء إنجلترا سنة 56، وأحد الزعماء الثلاثة الذين أخذوا قرار الحرب على مصر وغزة، فيما سميت (بالعدوان الثلاثي).

وقف القطاع بل العالم على ساق واحدة.

فمصر تملك صواريخ القاهر والظافر والرائد، وتملك أقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط كما قال عبد الناصر (أنا عندي جيش تعداده مليون جندي)...ومصر تملك أسطولًا بحريًا قويًا وجبارًا، وقد انتصرت مصر على ثلاث دول، منها قوتان عظميان، إضافة إلى الربيبة (إسرائيل) كما كان يطلق عليها... إذن؛ دقائق ثم تتبخر إسرائيل، ودقت طبول الحرب كل الإذاعات.

وهبط الخصم اللدود لعبد الناصر في مطار القاهرة فجأة ببزته العسكرية، ليضع الملك حسين جيش الأردن ومقدراته رهنًا لإشارة من أصبع عبد الناصر. وقع الزعيمان إتفاقية الدفاع المشترك، ليخوضا الحرب معًا ضد إسرائيل.

وتكونت قيادة موحدة للجيشين، بقيادة الفريق علي علي عامر (المصري) وذهب الفريق عبد المنعم رياض إلى عمَّان ليقود الميدان.

وقع ذلك، أمام ذهول العالم ، وذهول مريم التي تملكتها رغبة في الرقص، لو كانت تتقن الرقص ، ولكنها ذهبت تقفز إلى بيت عمها أبي أحمد مهنا لتبشرهم بأن الأسبوع القادم سيشهد رجوعهم إلى المسمية ... وسرحت في الجندي الواثب...

وفي حلمها الأثير (هي حربة في يد القائد) وهو جمال عبد الناصر في هذه المرة، وليس الشقيري، تخترق صدور اليهود لتخرج من ظهورهم عشرة عشرين بضربة واحد.. وهكذا تعود إلى يده ليسددها فتخترق عشرة عشرين. كانت مريم سعيدة.. سعيدة.. ذهبت إلى بيت خديجة.. وتريد أن تحضن الأستاذة سعاد مديرتها.. والأستاذة سوزان.. والأستاذة فاطمة.. تريد أن تحضن الملازم مصطفى ولكنها توقفت.. لا ... لا .. وقد كست حمرة الحياء خديها.

انتهى الأسبوع ، وفجأة ذهب كل شيء، دخلت إسرائيل الحرب فجأة .. دمرت المطارات الحربية المصرية فجأة، ونجا الفريق صدقي محمود قائده، فجأة دُمر الجيش المصري والفلسطيني ، وهرب الأسطول المصري بقيادة الفريق سليمان عزت فجأة، كانت عمر هذه الفجأة فجأة، انهارت القيادة الموحدة، وعاد كل من علي علي عامر، وعبد المنعم رياض إلى القاهرة، ووصل الجيش الإسرائيلي إلى مياه قناة السويس ، بسرعة جريان السكين في قطعة جبن صفراء.

ووقع آلاف الجنود المصريين أسرى في يد الجيش الإسرائيلي.

خرج موردخاي هود قائد الطيران الإسرائيلي يتحدث من أنفه الأخنف عن نتائج ضربته (الفجأة) للطيران المصري.

دخل الجنود الإسرائيليون غزة من تلة المنطار.. رأتهم مريم فغرزت أصابعها في خديها.

وسقطت القدس ونابلس ورام الله، فجأة انسحب الجيش الأردني من جبل المكبر، بعد أكذوبة أنه استرده من القوات الصهيونية المعتدية المجرمة. ذهب كل شيء .. الآمال .. الأحلام .. الشعارات.. شباب في عمر الزهور.. بسطاء... امتلأت الشوارع بجثثهم.. ومن بقى على قيد الحياة منهم يبحث عن حياة .

هرب اللواء عبد المنعم حسن حسني (قائد القوات المسلحة في قطاع غزة والذي عينه عبد الناصر) إلى مشفى الشفاء ، ودخل بين الممرضين والممرضات، بعد أن خلع ملابسه العسكرية، ونياشينه، ولبس ثوباً أبيض من أثواب الخدم.. وكل هذا وقع فجأة.

الدقائق تمر حريقًا في قلب مريم.. غاضت ابتساماتها وضحكاتها وقفزاتها.

أخذت تبحث في كل مكان، عن أهلها وهم حولها، خشية أن يقتلوا فجأة.

أين أخوها الحبيب ؟ .. أين الفتوة ؟ .. أين الملازم مصطفى ؟ .. صارت تبكيه كما لو كانت أمه (يا حبيبي يا ابني.. يا حبيبي يا أمه).

كانت تسمع أحمد سعيد وهو يهدر، ها هي طائراتهم تتساقط مثل الذباب (بلهجته المصري: مسل الزباب)

ويبشر العرب.. يا عرب ها هي إسرائيل تضع نهايتها بيدها. وهنيئًا لك يا سمك البحر هنيئًا لك يا سمك القرش، صرخت مريم: كذاب .. كذاب.. كذاب.. ها هم في شوارعنا.. في بيوتنا .. يملكون أنفسنا وأنفاسنا.. كذاب.. صرخت بملء حنجرتها المخنوقة: كذاب.. وضربت المذياع بقبضتها ليسكت عن الكذب ، جاء أبوها.. فتح المذياع.. انتشر صوت جورج ناصر الكريه.. الذي يشبه صوت ارتطام الساطور بخشب البلوط، بكت حتى كاد يغمى عليها.. كل شيء ضاع

فجأة، حتى امتحان الثانوية العامة ضاع.. ضاع.. أخذ راديو إسرائيل يذيع التطمينات لسكان القطاع. بصوت جورج ناصر، ويذيع التهديد والوعيد لمن لا يلقى السلاح من الجيش المصري.. لا جدوى من المقاومة . يسكت جورج ليبث المذياع أغنية (سواح) لعبد الحليم (سواح وماشي في البلاد سواح) قهرتها الأغنية، كما قهرها صوت المذيع وهو يتصاعد من إذاعة صوت العرب (أمجاد يا عرب أمجاد...) صرخت أين هي الأمجاد.

مر على خاطرها سيد قطب ... وسألت لماذا أعدموه؟ عواصف من الخواطر والانفعالات هبت عليها من كل مكان بعقلها.. بقلبها.. بنظراتها...برأسها.. عصفت بمشاعرها.. لم تعد في مقدورها الوقوف، (كريشة في مهب الريح تائهة... لا تستقر على حال من القلق.)

وذهبت أصوات مهدي سردانة وابتسام حلمي، وياسين محمود

وذهب المارد العربي إلى فراغ... قال عنه جورج ناصر: عبد الناصر نمر من ورق.

أذاع المذياع الإسرائيلي مكالمة سرية بين عبد الناصر والملك حسين.. يتفقان على تبادل الأكاذيب.. التقطتها سفينة أمريكية في عرض البحر قبالة شواطئ الإسكندرية. ضحكت مريم : لماذا سمحوا لها؟ ولماذا تركها الاسطول المصري القادر؟ وأين صواريخ الظافر والقاهر والرائد.. وأين .... وأين؟ أين الثوار؟ واين الأحرار؟ وأين صمودك يا بلدي؟ وهل سيعود المغني ليقول:

أطلب تلاقى ثلاثين مليون فدائي

ملايين الشعب، أدَّق الكعب، وتقول كلنا راجعين.

يا أهلاً بالمعارك.

وجدت مريم نفسها تقول فجأة وعلى غير عادتها (طز) وذهبت إلى فراغ.. إلى مجهول.. ضاع كل شيء.. لحظات من اليأس اجتاحتها، وتمنت أن تجد أخاها، وإذا به أمامها بوجه شاحب.. مغبر... كما لو كان جنديًا مهزومًا فارًا من أرض المعركة، وعدوه يلاحقه ... أين أنت؟ احتضنته وانفجرت في البكاء.

قال .. أما قلت لك بأن الجيش الذي يبصق قائده في وجهه، وينعته بالطلاينه والخرعين، لن يحقق النصر، بل ويفقد أرضه وسماءه وبحره وهواءه..

وانفجر هو الآخر باكيًا .. واختلطت دموعهما.. وتجمع يأسهما وغامت الدنيا أمام ناظريهما في الوقت الذي يصدح فيه المذياع..

الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر فوق كيد المعتدي

ولكن شتان بين وبين .. بين سنة 56 وسنة 67 ، شتان بين بثها في الأولى، وبين بثها في الثانية. كان لها مذاق العسل سنة 56، وأما سنة 67 فلها مذاق العلقم، هكذا غمغمت مريم.

أيام قلائل .. أربعة أيام .. ظهر عبد الناصر ليعلن تنحيه عن الحكم، ويعترف بالنكسة، وأن القاهرة قد فقدت غطاءها الجوى وتمزق جيشها، وأنه يتحمل المسئولية كاملة.

وخرج كبير مذيعي البرنامج العام – القاهرة (جلال معوض) يكفكف الدمع الهتون كما قال جورج ناصر ساخرًا .

كان جلال يبكي عبد الناصر، ويناشده بالبقاء ولا يتنحى.. ولا ينزوي!! نعم هو قائد مهزوم.. ومن كان هذا شأنه في دول العالم يقدم إلى محكمة بتهمة الخيانة العظمى، هكذا فعل هتلر بروميل!!

أصبح لفظ النكسة على كل لسان، ولم تدر مريم لماذا اطلقوا على هذه الهزيمة الساحقة اسم نكسة؟!

هل للتخفيف من وقعها؟ ولماذا أطلقوا على سابقتها سنة 48 اسم نكبة؟!

ابتسمت بمرارة (عشت يا شعبي النكبة، وها أنت تعيش النكسة)

****

(عاصفة ...عاصفة)

استولى الحزن على قلب مريم ، واستبد بها القلق ، وامتلأ قلبها باليأس ، لا تكف عن البكاء ، حتى تقرحت جفونها ، لم يكن هذا حالها فحسب ، بل حال كل بيت فلسطيني، ولم يعد العم أبو خليل بساقه الواحدة بقادر على أن يلبي طلبات زبائنه ، فلم تعد تقوى ساقه اليسرى على حمله رغم وجود الساق الخشبية ، ولم يعد صوت مذياعه يملأ المكان ، ذهب أحمد سعيد ، ومحمد عروق ومازن النقيب وعبد الهادي البكار وفواز شعار ، وكان آخر ثلاثة منهم من السوريين الوحدويين الذين انضموا لعبد الناصر وتخصصوا في كشف أسرار عمالة الانفصاليين من حكام سوريا الذين أبطلوا الوحدة بين مصر وسوريا تحت ذريعة اهانة المشير عبد الحكيم عامر لكبار الضباط السوريين ، واستحواذ عبد الناصر على مقدرات الشعب السوري ، ذهبت كل البهجة، وأعياد الثورة وغناء أم كلثوم وعبد الحليم وفريد و.... ورقصات نجوى فؤاد ، وتحية كاريوكا للجيش في برامج المسرح العسكري ، حتى وصل بصلاح جاهين أشهر من كتب للثورة ولعبد الناصر ،وغنى له كبار المطربين، وأهمهم عبد الحليم وصل به أن يقول :

يااه ...كنا في مستنقع ولا ندري

لكن ؛ وبغض النظر عن الدوافع والأسباب خرجت جماهير الشعب المصري بالملايين يومي 9، 10 من يونيه لتطالب عبد الناصر بالبقاء وعدم التنحي ... ورضخ عبد الناصر لمطالب شعبه .

رأت مريم ذلك عبر شاشة التلفاز التي أحضرها من سنين العم أبو أحمد مهنا، كما سبق ورأت خطاب التنحي لعبد الناصر ، وبكت مع من بكى ،وتمنت أن يظل في موقعه ليقود حرب تحرير بلاده ... كان الأسى يداهمها على المصريين الذين يقتلون – صباح مساء – بقذائف المدافع ،والطائرات .. مدن القناة يدمرها اليهود ؛ السويس ، بورسعيد ، الاسماعيلية ...

صارت الأغاني حزينة ، لم يعد صلاح جاهين يكتب .

عبد الناصر يعلن (ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة) تدور الهواجس في رأس مريم .. جلست تبكي على الجندي الذي لم يكمل وثبته من القدس إلى يافا ، وخابت نبوءة الفنان الذي رسمها على جدار المدرسة ، وخابت أحلام الملازم محمود ، وخابت تعليمات الأستاذة سعاد الأعظمي الصارمة ، وخابت الجيوش كما خابت كتائب الفتوة ... جلست تبكي، وألقت السمع على صوت تبادل رصاص أعقب تفجيرًا هائلًا ، جاءها أخوها يلهث ؛ شبابنا دمروا دبابة إسرائيلية، وقتلوا من فيها عند مدخل الشجاعية ، شعرت بقشعريرة تهز كيانها ،

- من هم شبابكم ؟
- شباب فلسطين ...من هنا ... من الشجاعية .

– ومن أخبرك ؟

- لا تسألي ...اسمعي فقط (يا فتوة)

انقلب الحزن في قلب مريم فرحًا ، وعاودتها الرغبة في تقبيل أخيها فاندفعت نحوه .. يا حبيبي يا خوية ... أمانة

- أقسم لها : والله العظيم يا ماما .. روحي ابك لوحدك ، وانفلت راجعًا بأقصى سرعته كما لو كانت ساقاه ساقي عفريت .

تتالت الضربات في كل مدن القطاع وقراه ...لم يعد الجندي الصهيوني في مأمن ...

طرق سمعها للمرة الأولى بعد أكثر من خمسة عشر عامًا (الفدائيون.)

الفدائيون ضربوا ... الفدائيون انسحبوا ... الفدائيون قتلوا ، فجروا ..

وعبد الناصر يعلن حرب الاستنزاف، وإذاعة صوت العاصفة يعلو صوتها ، ويعلو ويعلو بالبيانات العسكرية والأناشيد الحماسية :

*طل سلاحي من جراحي يا ثورتنا طل سلاحي

*وفوق التل وتحت التل

*ومش منا أبدًا مش منا

هدير الموسيقى والأصوات التأثيرية للعاصفة والرسائل المشفرة ، من صقر واحد إلى صقر اثنين رسالتكم وصلت إلى الفهد ... إلى الفهد حذار حذار توجه نحو 19 ثم إلى 20 فثلاثين .

قلب مريم يطير إلى سبع سماوات .. أصبح شغلها اليومي متابعة الأخبار ...وسماع النشيد الثوري:

طالع لك يا عدوي طالع من كل بيت وحارة وشارع

وقبل أن تنتهي الأنشودة يقطع المذياع الإرسال ويضع موسيقاه الهدارة التي تسبق الإعلان عن عملية فدائية جديدة ، قامت عايدة سعد بمهاجمة دبابة إسرائيلية بالقنابل، وأتبعتها بصليات من مدفعها الرشاش ؛ قتلت قائد المجموعة وثلاثة من جنده .

شد الخبر قلب مريم ....

- من هي عايدة سعد ؟؟....

- جاءها الجواب من العفريت أخوها .. ألا تعرفين عايدة ؟ ... طالبة في مدرستكم .. وتسكن عند المحطة (محطة القطار – الشجاعية)وأضاف : وقعت أسيرة في أيدي اليهود (يا فتوة) والله يرحمها ... من الممكن أن يقتلوها ... ولا بأس .. لأجل عيونك يا فلسطين .

تنهدت بفرحة وحسرة .. المرأة تخوض المقاومة ، وللأسف لم ينتبه الشقيري لذلك ، وانتبه له قادة الفدائيين ، ولكن اليهود حرصوا أن تسير عجلة الحياة .. ويبدو أن لهم مكائد خبيثة لا تخطر ببال ابليس

***

توسعت الدائرة .. زادت الهجمات .. ها هو أبوها وعمها أبو أحمد يتهامسون :

- أمانة يا أبي ماذا قلتم وأنتم تتهامسون ؟
- نقل إلي عمك أبو أحمد خبرًا أسر له به أبو خليل أن ضابطًا عراقيًا واسمه ذيب، وآخر من سوريا واسمه فيصل هما من يقودان الفدائيين ..

ساورتها أمنية أن يتوحد العرب وداعب خيالها (إن الوحدة قد تحققت) على يد ذيب وفيصل، دون عبد الناصر هذه المرة ولا الشقيري أو حسين أو .... أي رئيس أو ملك ،فأولئك قادة فاشلون منهزمون ، وأما ذيب وفيصل وأمثالهم فلا يعرفون الهزيمة قط ، ولا يهابون الموت ، خطت أصابعها سطورًا تمجد البطلين .. ثم انزوت لا تدري ماذا تفعل !! وتمنت أن ترى خديجة ، لكن خديجة قد تزوجت ، ولا يجوز أن تذهب إليها في بيتها الجديد إلا أن تنظم لها زيارة رسمية . وما أخرجها من وحدتها وأحلامها إلا الطرق على الباب ..

- مين ...؟
- أنا ... عرفت في الصوت صوت أخيها ... دخل كعادته يهلث . .استشهد عبد الكريم وأخوه عبد المجيد وهما من أشجع الفدائيين في جباليا .. لقد قتلوا عددًا من الجنود الصهاينة، واختفوا في بيارة ، فجاءت طيارة حربية وتعقبتهم حتى قتلتهم .. هما شقيقان ...رحمهم الله ، ألقى كل هذه الكلمات ؛ كما لو كانت رصاصًا مندفعًا من فوهة مدفع سريع الطلقات على مسامع مريم .

همت أن تذهب إلى البيارة لتضمد جراحهما كما تعلمت على يد الزميلة سوزان في دروس الإسعافات الأولية ، ثم انتقل عقلها فجأة إلى عايدة سعد .. أريد أن أكون عايدة سعد الثانية (يا خوية) فهل تدلني على ذلك ؟

تراجع من أمامها بخطوات سريعة ، وهو يلوح بيديه قبالة صدره ..لا ...لا .. ليس لي من الأمر شيء ، أخبري الوالد والوالدة (يا فتوة) وانفلت خارجًا وقد أخرج لها لسانه ... وأشار بأصابع يديه وكأنه يقول لها : اقعدي مكانك ، ثم رفع سبابتيه إلى عينيه ساخر من بكائها ،

ومقلدًا بصوته صوت نحيبها عندما تسمع بخبر شهيد أو شهيدة أو هدم منزل ولو في مدن السويس .

***

لم يشأ أبوها السماح لها بمواصلة دراستها لتحصل على الثانوية العامة .. وقد لاقى هذا الرأي هوىً في نفسها، فلم ترجع للمدرسة ، عادت إلى مطالعة (الطريق إلى بير سبع) ، وكتاب (وهكذا ضاع الشرق الأوسط) ، وأحضر لها أخوها كتاب (أرض النفاق) ..

- يا مريم هذه رواية ليوسف السباعي ، ليس فيها كلام فاحش .. أخذت الكتاب ، قلبت بعض الصفحات .. جرت نظراتها على بعض سطوره بسرعة ..

- نعم ، إنه جيد ، ويكفي أنه منك يا حبيبي ،

- وبحركة مسرحية نظر خلفه :آآآه ... ظننت أنك تخاطبين آخر وهمس .. يريد أن يأتي الليلة

- قفز الدم إلى وجهها ،وتلعثمت بصوت مشبع بالحياة ؛ من هو ؟

- هي ي ي ي ي .. تتظاهرين بالجهل .. وأخذ يتراجع على عجل ، ارتطمت قدمه بعتبة الباب ، وكاد يقع ...

- فاندفعت صارخة (يا حبيبي يا خويا .... اسم الله عليك) إلا أنه تمالك نفسه وخرج يعدو ، وأخذت تتمتم ربنا يحميك ، ما أذكاك وما أخف دمك ، وابتسمت لحظات لتعود إلى هواجسها ...

(مريـــم عـــروس)

انصرف ذهن مريم عن الدراسة ، وأشغلت قلبها وعقلها بمتابعة أخبار الاشتباكات مع اليهود ، والعمليات البطولية التي ينفذها الفدائيون ضدهم ، ولا يتوقف مؤشر المذياع إلا عند إذاعة العاصفة ، حتى حفظت أناشيدها عن ظهر قلب ، وكم شط بها الخيال وهي تحاول فك رموز الرسائل التي ترسل بها القيادة للمجموعات المقاتلة .. انقطع الإرسال فجأة ليبث المارشات العسكرية كالعادة .. ثم إلى (الكرامة) تلك القرية الوادعة في غور الأردن شرقي الأردن .. تدخلها الدبابات الإسرائيلية تحت حماية جوية هائلة ، جسر الأردن التي أسمته فيروز جسر العودة وهي تغني له : جسر العودة .. يا جسر الأحزان أنا سميتك جسر العودة .. ثم تصرخ: الغضب الساطع آت وأنا كلي إيمان ... الغضب الساطع آت سأمر على الأحزان ..

تابعت المعركة وكأنها في معمعانها .

تصفق عند سماعها بيانًا عن نسف دبابة .. قتل صهيوني .. إسقاط طائرة ..

كان الإرسال ضعيفًا ، تحمل المذياع وتنتقل به من مكان إلى مكان عسى أن يتحسن استقباله .

تضحك حينًا ، وتصفق .. وتبتسم ... وتعبس .. تبكي ، وفي كل حالاتها كان قلبها يرتجف سرورًا أو خوفًا ، وانجلت المعركة على انتصار الثورة .. وانتصرت الكرامة .. سمعت الملك حسين وهو يقول : كلنا فدائيون ...وسمعت أغاني الثورة .. وهدير العاصفة .. وسمعت (الهاوي) من النساء لياسر عرفات ، وتابعت أغانيهن له :

زرعنا الياسمينة ع باب الدار ** فلسطين بتنادي يا أبو عمار

وزرعنا الياسمينة ع باب الحوش **فلسطين بتنادي بطل الجيوش

سمعت الزغاريد ، كان حديثها صباحًا ومساءً ، حتى وهي تتناول الطعام مع أخوتها وخاصة أسعد العفريت .

****

(انتصار الكرامة)

ازدادت الضربات الموجعة للاحتلال في غزة والضفة الغربية الأمر الذي مسح اليأس عن قلوب العرب من المحيط إلى الخليج .. لقد ثأر الفلسطينيون لكرامة العرب التي داستها إسرائيل في 5 يونيه / حزيران ، وفي الجانب الآخر ازدادت ضراوة الاستنزاف المصرية ضد القوات الغازية التي جن جنونها ، فانطلقت طائراتها لتضرب مدرسة بحر البقر ، لتقتل تلاميذ في عمر الزهور ، ثم إلى مصانع أبي زعبل لتقتل عشرات العمال العزل ، أصبحت إسرائيل في مأزق أخلاقي وقانوني .. ترتكب أفظع الجرائم بحق المدنيين في كل مكان .. ولقد أصاب مخيمات القطاع الثمانية إجرامهم .. فقد مسحت جرافاتها مئات المنازل لتهجر أهل المخيمات إلى أماكن فضاء بدعوى أن جندها لا يستطيعون التحرك في أزقتها آمنين ، هي نظرية الأمن الإسرائيلية التي تستبيح حقوق الإنسان ولا تبالي حتى تحققها .

جبناء .. تافهون ، هكذا علقت مريم على كل حادثة تجريف ومسح لمنازل المخيمات ؛ جباليا ، والشاطئ ، ودير البلح، البريج ، والمغازي ،والنصيرات ،وخانيونس ، ورفح ، وهجرت أهلها للمرة الثانية أو الثالثة في أقل من عشرين سنة

***

دق الباب .. فتحت ، فإذا بأبي سعيد فرحات وخالتها أم سعيد ، تورد خدا مريم حياءً ؛ أهلَا يا عمي ، واحتضنت خالتها، ثم ذهبت لتخبر أمها بمجيء أختها ،وبعد أخذ ورد صارت

مريم مخطوبة لفتحي .. لم تأخذ مراسم العقد إلا أيامًا قليلة .. لتنتقل إلى بيت زوجها .. بساطة في المهر .. بساطة في أثواب الفرح .. بساطة في السهرة ، كانت سعيدة وكأنها وجدت من تبحث عنه ، ففيه ملامح الجندي الواثب من القدس إلى يافا والذي تركته على جدار المدرسة ، لتسأل نفسها : ترى ماذا فعل اليهود بالخريطة ؟ وماذا فعل ببقية الرسومات وخاصة لوحات إسماعيل شموط وزوجته تمام ؟

أصبحت مريم زوجة لفتحي .. ولم يشغلها ذلك عن متابعة أخبار الفدائيين الذين تعرضوا لأبشع صنوف الملاحقة على يد المجرم شارون الذي كرهته مريم كما لم تكره أحدًا أبدًا ، استقر بها الحال في بيت الزوجية .. وأخذ زوجها يبحث عن توفير أسباب العيش الكريم لأسرته ،فقد أصبح مسئولًا ، وأما مريم فقد عَنَّ لها أن تعود للدراسة من جديد وبلا تردد أخذت تدرس ، لم يمنعها حملها الأول من المذاكرة ومتابعة الدرس ، رغم انقطاعها لأكثر من عام ... أخذت تتردد على مدرستها التي لم يتغير فيها شيء ، حتى الأستاذة سعاد .. كل ما هنالك لم تعد ترى الملازم مصطفى ،ولا الأبلة سوزان ... لم تعد ترى المصريين ... ولم تعد ترى كتيبة الفتوة ولا شعاراتها .. استقبلتها المديرة بترحاب .. وعناق .. وترقرقت في عينيها الدموع .. دموع الأسى على ما فات من أحلام ورؤى ، ودموع الفرحة بلقاء متجدد .. كانت بطن مريم قد كبرت بالحمل .. نظرت إليها مديرتها فأطرقت حياءً .. وابتسمت : نعم يا أبلة .. وكأنها تجيب على سؤال لم تسمعه، بل رأته في عيني المديرة (هل أنت حامل ؟...)

كررت المديرة التهاني والمباركات .. وأثنت على إرادتها

***

(المســـجـــد)

كان بيت فتحي قريبًا من مسجد الإصلاح ، ومن مكبر صوته تناهي إلى سمعها درس الوعظ .. قررت أن تذهب إلى المسجد ... لم تكن مريم – ككل بنات جيلها – قد عرفت الالتزام باللباس الشرعي .. ودخلت غير وجلة، واندست بين مجموعة من العجائز ، ممن يترددن على المسجد للاستماع إلى الشيخ يعقوب ... لاحظت فيه أنه شديد الحياء حتى ظنت أنه أعمى لشدة غضه لبصره .. كان حديثه مؤثرًا جدًا تسلل إلى شغاف قلبها فأيقظه وتعلق بالمسجد .. نظرت النسوة إليها باستهجان وتحبب .. شابة في جمالها وعمرها تأتي ملتزمة محتشمة في حين أن بنات جيلها حاسرات الرؤوس ، كاشفات السيقان ، وبأكمام قصيرة ، وليس من اللافت للنظر أن تكون إحداهن عارية الذراعين ، كذا كانت العادات والتقاليد ، إلا أن هذه الصبية قد رفضت هذه العادات فاحتشمت والتزمت ، لأول موعظة سمعتها من هذا اليعقوب الذي لم ينقصه الإخلاص ولا الالتزام ولا العلم ، تمنت مريم أن تكون مثله في الفهم والفقه .. صار مثلها الأعلى .. كانت ترى الجنة وقد تدفقت أنهارها من بين شفتيه ، وترى زبانية جهنم في وعيده ... كان القرآن وآياته كأنه شلال متدفق من الذهب .. الأمر الذي شدها إلى ما يتفوه به وكأنه جواهر، ما عليها إلا أن تجمعها لتخبئها في مكنون صدرها ... وتعود إلى البيت المليء بأشقاء زوجها .. فتظل في لباسها الشرعي مما أثار استهجانهم أولًا ثم حفيظتهم ... أخذوا يتندرون عليها ... ويصفونها بالمغفلة حينًا،

وبالمعقدة أحيانًا ولم تكن تبالي... هكذا قال الشيخ يعقوب : أن تحرص المرأة على أن ترضي ربها وإن سخط عليها الناس ، فإرضاء الناس غاية لا تدرك ، وأما رضاء الله فبلزوم طاعته .. فمضت في طريق الهدى .. حفظت سورة النور ، عرفت ما يجب عليها فالتزمت ،

- لم يرق هذا لخالتها : لماذا يا بنتي حابسة نفسك في هذه الثياب ؟ وليس فيك ما تستحيين من كشفه ... أنت جميلة وشعرك جميل و....
- تبتسم مريم ... هذا لابنك فتحي يا خالتي وليس للباقين ....
- أهكذا علمتك أمك ....؟
- نعم ، وعمقه في قلبي الشيخ يعقوب ..
- يا بنتي افرحي بشبابك .. هذه ملابس العجائز ...
- الأولى يا خالتي بها نحن الصبايا ، فالعجوز لا تثير الرجال غالبًا ، وأما الصبايا (مثلي) فهن مطموع فيهن ، ثم هذه جنة يا خالتي أو نار ...

يتدخل زوجها في الحوار ويشتد .. ولا ينتهي ما بينهما من خلاف إلا بتصميمها، وبمزيد من رفضه لما يسمع من قيل وقال عن عقدها .. وعنادها ... وتعصبها ... ويؤذيه ما يسمع، وتقليدها الأعمى للعجائز .. ويصل الأمر إلى أن يعيروه بها .. وإبداء الأسى عليه أنه غير متزوج ، ووصل الأمر أن يصفها أحدهم له بأنها مثل (شيخ الغفر) لم تكترث مريم لكل هذا الضغوط ، ولا السخرية منها ، بل كانت تشفق عليهن وعليهم .. وتدعو لهم بالمغفرة والصفح ، لم تتوقف المعركة يومًا بين هذين الفريقين ؛ مريم في جانب ، والكل في جانب آخر ..

ويشتد أوراها في ساحة فرح بين شباب العائلة وشاباتها ...تشارك النساء بكامل زينتهن وتبرجهن ؛رقصًا وغناءً ،ولا بأس أن يكون ذلك بمخالطة شباب العائلة .. فلا تتحرج واحدة منهن من أن تراقص ابن خالتها وابن عمها وأخاها في آن واحد وهي عارية الذراعين مكشوفة الساقين والنحر ... على أنغام غناء مطربي العصر ومطرباته .. إلا مريم .. تأخذ جانبًا .. هذا إن حضرت الفرح ،وغالبًا ما تتغيب عنه .. وتظل واقفة حريصة على ألا ترقب المتراقصين ولا تنظر إليهم ، ولا يفارق رأسها غطاؤه ، ولا تخلع ملابسها الفضفاضة التي تغطي سائر جسمها .. وإلا فلماذا قال الله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم) .... وهنا تشب نيران المعركة ... سخريات ... غمزات ... لمزات .. تتقاطر على رأس مريم وناحيتها ، وغضب شديد وصراخ في وجهها من زوجها ، وتوسلات من خالتها وعمها أبي سعيد ... كلام ... صراخ ... وأوامر .. وتهديد بالطلاق .. ووعيد ... كل هذا من زوجها ، وأما هي فلا تزيد عن كلمة أو كلمتين تحملان معنىً واحدًا... هذا حرام ولا أغضب ربي .. وقد تضطر إلى الانسحاب من الفرح والضحكات تلاحقها .. مصحوبة بالشرر المتطاير من عيني زوجها .. ليأمرها إلى أن تذهب إلى بيت أبيها ؛ فتفعل .. لا بأس أن يغضب ، على ألا يغضب ربها ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ...

***

تقدمت مريم إلى امتحان الثانوية العامة وقد شارفت على الوضع .. هي في سباق مع الضيف أو الضيفة الجديد /ة .. كان شوق أم سعيد يزداد يومًا فيوم لاستقبال الحفيد الجديد ، عساه يثقل قدم مريم في البيت ، ولا يضطر ابنها إلى طلاقها لعنادها .. و(حنبليتها) هكذا قالت لأختها ...

– فقالت أم مريم بامتعاض: مريم محترمة يا أم سعيد ، وتخاف الله ، ومطيعة ومؤدبة .. بالله يا أختي امنعي عنها الألسنة الطويلة .. ويهزأن منها ...

- مصمصت أم سعيد شفتها قبل أن تقول : هي التي (جابت) لنفسها كل ذلك .. عايشة زي العجوز في البيت حتى في الأفراح ....

- قالت أمها غاضبة : وهل يرضيك أن تمشي زي النوريات والغجريات يا أم سعيد ...

***

تقدمت مريم للامتحان .. رغم ما تعاني من حملها في شهرها السابع .. دخل فتحي مبتهجًا لأول مرة منذ أشهر ...زف إليها خبر نجاحها بتفوق فقد تحصلت على 80% .. امتلأت نسوة الأسرة بالغيرة ، ولكن في قرارة أنفسهن احترمنها ، وغبطنها ...

خرجت مريم إلى المسجد أكثر ثقة بنفسها ... قرأت كتاب (معالم في الطريق) الذي أعدم صاحبه كما قال الأستاذ عبد الرؤوف ، وأخذت منه (جيل قرآني فريد) ، شرحت الفصل بكامله أمام السيدات .. بطلاقة غير معهودة منها ... طلبت إليهن – بشفقة – أن يأتين ببناتهن أو زوجات أبنائهن إلى حلقة الندوة القادمة .. سر بها الشيخ يعقوب .. أخبر صديقه أحمد ياسين بذلك ، اتصل حبل التوقير بينها وبين الشيخ يعقوب والأستاذ أحمد ياسين ، حتى إذا ما سئلت عنهما قالت : لن أنسى فضل الشيخ يعقوب علي ما حييت ، لقد كان السبب في التزامي وهدايتي وثقافتي (وتبتسم بحياء وتواضع) لتقول : إن كان عندي ثقافة!!

كما لا أنسى فضل الشيخ أحمد ، فهو من وضع قدمي على طريق الجهاد...

****

(إيمـــان)

شهر مر على نجاحها ، ولم تتوقف خلاله عن المطالعة والقراءة ، وتلقي العلم عن شيخيها .. حتى أطلت إيمان ابنتها البكر على الدنيا .. اتسعت الدنيا رغم ضيق ذات اليد ، والبيت ، وازدحامه ... وامتلأ سعادة وأنسًا .. جاءت إيمان .. هكذا أسمتها تيمنًا بإيمانها ...كانت إيمان كاشراقة نور أضاء حياة مريم .. تنظر إليها فترى فيها آية من آيات الصانع سبحانه .. تتدبر ملامحها، عينيها ... شعرها الأسود اللامع .. شفتيها ... فترى في كل ذلك صنع الله ... صارت إيمان في حياة مريم مبعث تفكر في الخالق ، فيزداد إيمانها عمقًا ويزداد إدراكها يقينًا ... هو الله ... ولم تنس أبدًا – وهي تمعن التفكر في إيمان – واجباتها حيال زوجها الذي أخذ حجرة من قلبها إلى جوار إيمان ... لم تكن ترى فيه السند والحبيب ، واليوم ها هو سندها وحبيبها ورفيق دربها وشقيق روحها ، هو أبو إيمان ... فضلًا عن أنه لم يعد ينغص عليها حياتها بمطالبتها بأن تكون متحررة أكثر ، منطلقة أكثر ، اجتماعية أكثر .. لا تحتجب عن أخوته .. وتجاري الأخريات في كل شيء ، كل شيء ، بل تفهم ما تريد وما تفعل .... واعتادت رجلاه على حمله إلى المسجد ... بعد أن كان لا يصلي إلا لمامًا ....

كانت تحلم بأن تكبر إيمان وتصحبها إلى المسجد ، وكانت تحلم أن يكون لها أولاد كثر يتربون في المساجد .. الشيخ يعقوب يتولي أمر تربية بناتها كما رباها ، ويربي الشيخ أحمد

ياسين أبناءها ، فقد علمت من الشيخ يعقوب أن من ربى أولاده وأحسن تربيتهم على طاعة الله دخل الجنة ..

***

درجت إيمان .. بلغت السادسة .. دخلت المدرسة .. مرت سنة ، فأخرى حتى أصبحت في المرحلة الإعدادية .. فعَنَّ على بال أمها خاطر .. ما رأيك يا إيمان أن تلبسي الجلباب والحجاب بدل هذا المريول والبنطال ؟ فرحت إيمان .. دون تفكير قبلت .. فقد اعتادت على ذلك منذ صغرها عندما كانت وما زالت ترافق أمها إلى المسجد ، وهي محتشمة بلباسها مما لفت إليها أنظار السيدات ، كما لفتت نظر الشيخ يعقوب ، الذي كان يداعبها بأبوة حانية وبشر..

****

لبست إيمان الجلباب وهي في هذه السن .. بعد أن وافقت معلمتها على ما طلبته أمها في ذلك بعد زيارة مريم للمدرسة ، وحديثها الإيماني الدعوي مع المعلمات ، اللاتي شعرن بالحرج من لباسهن أمام الآيات والأحاديث التي تحدثت بها لهن .. كانت إيمان بعد صغيرة ...تجري بجلبابها وحجابها بكل طفولتها ، مما يجعل منها كمغناطيس تجذب أنظار المارة إليها رجالًا ونساء .. اعترضتها واحدة منهن ... قولي لأمك هذا حرام فأنا صغيرة على الجلباب .. لم تكترث إيمان كثيرًا لكلام السيدة ، وهزت برأسها وابتسمت .. حاضر يا خالتي، لتقطع الطريق أمام المزيد ...

****

وجدت مريم نفسها أمًا للمرة الثانية ، بعد أن كانت أمًا لأخواتها منذ صغرها ، أحاطتهم بكل حنانها ورعايتها ، حنانها تلقائي وبلا تكلف ، ورعايتها تلقائية وبلا تكلف ، لا تنتظر أمرًا من والديها لترعى أحدًا من أخوتها ، أو تقوم بدور ، كانت مبادرة في كل سلوك ... وبهذا لم يكن صعبًا أن تكون أمًا لأولادها .. وقد عرفت طريقها إلى المسجد ، وعبدته لهم ...

أصبحت إيمان من حمائم المسجد ، لا ترضى بالثقة في واحد منهم إلا بعد التثبت من أنه أهل للثقة .. تسأل عن تفاصيل التفاصيل ... أين ذهبت ؟ ومع من ؟ تسأل عن أصحابهم ، وزملائهم ، ومدرسيهم ... تريد أن تطمئن على أخلاق زملائهم وأصحابهم .. فقد قال الشيخ أحمد : الصاحب ساحب ، مستدلًا بقوله تعالى : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) تشرح ، وتدقق ، وبكل حب توجههم وترشدهم ..قرأت معهم كتب عباس السيسي (الدعوة إلى حب) أخذوا عنها هدوءها ، وحرصها على خدمة دينها .. لأنها الجنة... أخذوا عنها الرغبة الجامحة في العطاء ...

****

تسأل وسامًا : هل صليت الفجر في المسجد ؟ لماذا يا وسام، أتحب أن تغضب الله منك ؟ تبتسم : هل تحب الله ؟ إذن فافعل ما يحب حبيبك ، لم تكن متناقضة مع نفسها ... لا تأمر بشيء وتقعد عنه ، ولم تنه عن شيء وتفعله ، لا تنادي ابنها إلا بـ (يا حبيبي) ... ارتبط بها أولادها ارتباط القلب بالصدر والعين بالرأس ، كانوا يزنون الأمور بعقلها ، ويرون الأشياء بعينها ، يحبون ما أحبت ، ولا تكره إلا الكفر وأهله وعلمتهم ذلك ، كم حدثتهم عن رغبتها في أن تشارك في جيش يعيد العم أبي أحمد إلى المسمية ، وحدثتهم عن جرائم اليهود في دير ياسين ويافا وبيت دراس وأبو سويرح ، حدثتهم عن العصابات الصهيونية ، وكيف كانوا

يذبحون الصغار؟ قرأت معهم كتاب (أيام من حياتي) ، وتفسير سورة البروج ، وتقف عند (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) حدثتهم عن الطفل الذي آمن بما آمن به الكاهن ، وكفر بالسحر وأهله ، فتحدى الملك الظالم ، فقتله ، فكان في شهادته نصر لدعوته ...

تلبست هذه الروح أفئدة أولادها جميعًا .. نضال .. محمد .. رواد .. الذين رأوا الشهادة جنة ، أو حورية عين ، فتمنوا الاقتران بها ..أخذوا عنها السرية التي دللت عليها بأكثر من دليل ، وبما وقع مع سيد قطب ، وكيف أوصله إلى حبل المشنقة من أفشى سر التنظيم ..

وقائع الحياة كثيرة .. كم من فدائي قتل بسبب عميل ، وكم من أعراض انتهكت بسبب خائن .. حدثتهم عن أبي رغال ، وعن عبد الله بن سبأ ، وعن عبد الله بن أبي بن سلول .. لا ينامون إلا على حكاية بطولة ...زرعت فيهم اليقين ألا شهادة لفدائي إلا بخيانة خائن ... وتختم ليلها بقراءة مشتركة لجزء من القرآن ، وبصلاة ركعتين قيام ليل على الأقل ، لتنفرد بعد ذلك بنفسها في مناجاة ربها ، والخشوع بين يديه ... أول سؤال تسأله عندما تجتمع بهم على مائدة الإفطار : من منكم لم يصل الفجر في المسجد ؟وقد عودتهم على الصدق ، فإذا قال أحدهم : أنا ، تحاسبه بالعتاب وفي عينها نظرة شفقة تتحول إلى دمعة .. وإذا أخطأ تبين له خطأه ، تطلب إليه أن يعتذر لمن أخطأ في حقه ، وتشيح بوجهها عنه ، فيشعر أن سياطًا تلسع جلده ، بل وأقسى .. تراعي في نصائحها الفروق الفردية بين أولادها ... لا تجرح كرامة أحد ، لقد علمها أستاذها الشيخ يعقوب الفرق بين النصيحة والفضيحة ، فكانت تنفرد بابنتها لتنصحها في معزل عن الباقين كيلا تفضحها ، ثم إذا ما انتهت تأخذها إلى

حضنها ، وتطبع على جبينها قبلة، فتبدد كل ما تجمع لديها من عناد أو مكابرة، مقرة بخطئها ، وبوعد ألا تعود ..

جلس إليها حسام :

- بصراحة نحن نهاب منك
- معقول ؟ ومن متى ؟
- منذ كنا صغارًا ، فلم نك ندري كيف نجيب عندما تسألين أحدنا عن الصلاة أو الصوم أو الدراسة ...كنا لا نجرؤ على قول الحقيقة ، ولكننا – مهابة منك – كنا نعترف بالخطأ!! ضحكت ضحكتها الأقرب إلى الابتسام ، وتمتمت ...يا حبيبي يا ابني ، كما تعودت أن تقولها لأخيها (العفريت) يا حبيبي يا خوية ...

***

عادت مريم بذاكرتها إلى الأيام البعيدة ، يوم أن كانت في مراحلها الدراسية الأولى ومر شريط الذكريات .. تهجير الفلسطينيين ... خيانة الحكام .. عبد الناصر ... العدوان الثلاثي .. الجندي الواثب من القدس ... عم أبو خليل .. الشيخ زكريا ... خديجة وسارة ... الشيخ يعقوب.... أحمد ياسين ... يااه شريط طويل ....

ووقفت بالذاكرة عند عايدة سعد .. الملازم مصطفى ..والفتوة ... وأمنيات وأحلام في الجهاد ...والموت في سبيل الله أسمى أمانينا ...ومدرسة الزهراء ... وقفت عند محاولة الإخوان الأولى للمقاومة ، ولكنها رجعت بسرعة إلى تهجير الأدمغة الإسلامية من قطاع غزة إلى الخليج والحجاز (السعودية اليوم) سنوات الخمسينيات والستينيات ... تذكرت ما ذكره

الشيخ أحمد ياسين عن إعادة تشكيل حركة الإخوان في غزة ؛ كان الذي تبقى بعد عملية التهجير القسري للإخوان من غزة قليلًا وممن تبقى أحمد ياسين، وبدأ بالتواصل بمن تبقى ..عبد الفتاح دخان ، حماد الحسنات ، محمود محسن ، مصطفى أبو القمصان ، الشيخ حسين المصري (الحنفي) ... الاحتلال قد ثبت أقدامه في غزة ... والفدائيون يقضون مضاجعه كي لا يستطيع أن يستقر وأخذ العمل ضد الاحتلال أحد مسارين ؛ مسار تربوي يقوده الشيخ أحمد ياسين ...ومسار ثوري يقوده فيصل وذيب وزملاؤهم من بقايا جيش التحرير ،وقد أعطوا لأنفسهم اسمًا جديدًا هو (قوات التحرير) .. وبرزت عناصر تنتمي لحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)والجبهة الشعبية .. حاولت بعض قيادات هذه الفصائل أن تستفز أحمد ياسين وصحبه للعمل المسلح ، إلا أن الرجل الذي امتلأ وعيًا بشروط الجهاد ومستلزماته لا يقطع برأي ، فيخرج الرسل وهم في حيرة من أمرهم ، لابد من تربية جيل .. هذا الذي يتمسك به لينطلق ... أخذ الصهاينة في ملاحقة الفدائيين بكل صنوف الإجرام حتى استطاعوا أن يضعفوا دورهم إلى حده الأدنى .. أزهقت أرواح وقيادات .. زياد الحسيني...صبحي أبو ضاحي ... زيدان الأخرس ..خضر الجزار.. عبد الكريم نوفل وشقيقه عبد المجيد ... ومن فتيات فلسطين عايدة سعد ، وفاطمة الحلبي .. فاغتالوا العشرات ، وسجنوا الآلاف ، وأبعدوا المئات عبد وادي عربة إلى الأردن .. و أما بناء الجيل فلا يزال في أطواره الأولى ... لا يتوقف ... كان أحمد ياسين مقنعًا ومؤثرًا ، ولم يكن إخوانه أقل منه تأثيرًا ... استهدفوا أطفال المدارس ، فالشيخ وصحبه في أغلبهم مدرسون .. أخذوا بأيديهم إلى المساجد .. تعلقت قلوب الأطفال بالشيخ .. الذي كان يعبئ قلوبهم الطاهرة بحب هذا الدين ، وينشئهم على الأخلاق الحميدة ، وكان على يقين بأن عشرة أعوام تكفي لبروز هذا الجيل الذي ينشئه الشيخ .. وكان يقول ببداهة : إن الجهاد هو ذروة سنام الإسلام

، ولن يقوم به إلا من بلغ هذه الذروة في الفهم والخلق ... ثم إن الثمن هو الجنة فهي سلعة الله ، وثمنها نفس المجاهد وماله ،ولن يقوى على تقديمها ، إلا من طمحت روحه للجنة وهذا يتطلب إيمانًا عميقًا ، وفهمًا دقيقًا ...

***

وكان يردد دومًا ما قاله نبيه الأكرم (صلى الله عليه وسلم) لأهل مكة : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، ويستطرد : إن القول وحده لا يكفي ، فلا إله إلا الله هي أول ركن في الإسلام ، وشأنه شأن بقية الأركان ، له أركان وشروط ونواقض ، ويأتي العمل بها في مقدمة كل ذلك ، إذ لا يكفي أن تردده فحسب ، بل يجب العمل بشروطها ، وتجنب نواقضها.. كان تفكير الشيخ دائمًا إلى الأمام ، لم يعمل بردات الفعل ، ولا بالعاطفة فحسب ، ويذكر الشباب المندفع بأحداث السيرة ... ويؤكد على أن محمدًا قد نصره الشباب وخذله الشيوخ ... ومضى .... كان الشاباك يرقب حركة الشيخ ، ولكنه لم ير فيه خطرًا آنيًا محدقًا به .. وانشغل بالقضاء على العمل الفدائي .. في المقابل ؛ اعتمد الشيخ علنية الدعوة وسرية التنظيم ، فعمد إلى بناء المجمع الإسلامي ، وتحلق من حوله فتيان اليوم وشبابه ، أولئك الذين كانوا أطفالًا بالأمس ، كان المجمع اسمًا على مسمى .. ففيه المسجد ، والعبادة والنادي ، ورجل الاصلاح ، ولجنة الزكاة الأشبه ببيت المال ،وفيه العمل النسائي الذي لفت نظر مريم، فسارعت بالمشاركة ، وأخذت شيئًا فشيئًا تتشرب مبادئ الإسلام وأفكار الشيخ ..

***

كان النادي الريا ضي من بين مرافق المجمع الأكثر قبولًا من الشباب فانضموا إلى فرقه ... فكانت برامجه موزعة بين كرة الطائرة – السلة – القدم – الطاولة .. والصلاة ، ومدارسة

القرآن ... فأحرز المنتمون بطولات وبطولات .. ولعل أقوى ما أحرزوه أنهم صاروا أكثر ارتباطًا بالشيخ أحمد وبفكرته ومبادئه .. فما أن يصبح الشباب في السنة النهائية للثانوية إلا ويتوق إلى الارتباط بالإخوان .. حبًا في الشيخ .. ذاك لأن من أحبك أحب كل ما يصدر عنك من قول أو فعل واقتدى بك ، ومن كرهك كره ما يصدر عنك من قول أو فعل .. لم يكن الأطفال وحدهم الذين تعلقوا بالشيخ ، ولكن من سمع به من الشباب الذين بلغوا الرشد ، في الوقت الذي انهزم فيه مشروع القومية العربية الذي طالما سمعوا لمنظريه ، وصفقوا له على أنه طريق تحرير وطنهم السليب ، وأفاقوا على هزيمة جيوش ذلك المشروع ،واحتلال ما بقي من وطنهم، إضافة إلى أراضي أربع دول عربية ، لذا فقد انصرفوا عنه وعن منظريه وأتباعه ، وأخذوا يبحثون عن طريق آخر للخلاص .. فوجدوا في الشيخ من يدلهم عليه ...فانحازوا له ، ولقد كانت مريم من هذا الجيل ، والذي ما إن سمع حتى لبى .. فتحت مصر أبواب جامعاتها للشباب الفلسطيني .. وإن هي ثلاث سنوات للاحتلال ، حتى فارق عبد الناصر الحياة ، فأعقب ذلك بزوغ فجر الحرية لمن زج عبد الناصر بهم في سجونه ، والذين ملأوا جنبات مصر ومن حولها بتعاليم الإسلام بشموله ومرونته ووسطيته وتدرجه ، فكان أول احتكاك بين الشباب الفلسطيني الراحل إلى مصر طلبًا للعلم ، وبين قيادات حركة الإخوان الذين خرجوا إلى فضاءات الحرية أكثر تصميمًا وإيمانًا ووعيًا وإعتدالًا ... تلقى كثير من الشباب ذلك الفكر من أفواه قياداته التاريخية ؛ عمر التلمساني ، مصطفى مشهور ، مأمون الهضيبي ، ليعودوا وقد أصبحوا من ركائز ذلك الجيل الذي كان يحلم به أحمد ياسين ؛ عاد إبراهيم المقادمة ، صلاح شحادة ، فتحي الشقاقي وعاد عيسى النشار ، وأحمد الملح ، والأخوان علي ومحمد الطرشاوي ، ونزار عوض الله ، ليثروا الساحة ...كانت مريم ترقب ذلك وتتابعه ، وتزداد إيمانًا بسلامة المنهج رغم وعورة الطريق ، وكانت تعلم أن الأمر

ليس بالهين ولا باليسير ، وكان الحبل قد امتد وقوي بينها وبين الشيخين يعقوب وأحمد ياسين ، فأخذت بالتوجه إلى قلوب أخريات ممن تأثرن بالشيخين ، حدثت صديقتيها واللتين ارتبطت بهما روحَا وعقلَا ووجدانَا .. وقد التقت أرواحهن و تعلقت بالعمل الجاد والمخلص لتحقيق الغايات الكبرى في أعلاها إرضاء الله ...أخذن يجمعن طاقاتهن ، ليحققن ما يعمل على تحقيقه الشيخ وكان مسجد الإصلاح بالشجاعية هو الملتقى ، ذلك المسجد الذي هوى له قلب مريم ، وفيه تلقت أول تعاليم الدين ومفاهيمه ، كن يتطلعن لعمل نسوي واع ، وتنشئة جيل من الفتيات يكون جنبًا إلى جنب مع الرجال الرجال، ففتاة اليوم هي الزوجة ومربية الرجال ، فإن صلحت صلح بها هذا الشعب ، وكان الصراع محتدمًا ، صامتًا بين الاحتلال وأذنابه وبين الشيخ وأتباعه ، صراع بين الإفساد والإصلاح ، وكان لمريم الدور الكبير في إنقاذ الكثير من البنات والسيدات .. كانت وصاحباتها يمارسن الدعوة بكل وعي تحصَّلن عليه ،وعملن بما قال الشيخ أحمد (خير الأعمال أدومها وإن قل) (العاقبة لمن صدق لا لمن سبق)

***

انتقل تفكير الشيخ إلى تأسيس جامعة بعد أن أغلقت مصر أبوابها في وجوه الطلاب الفلسطينيين إثر إقدام بعض الفصائل اليسارية إلى اغتيال الأديب يوسف السباعي وزير الثقافة المصري ... وحمل الفكرة إلى بعض كوادر الشعب الفلسطيني العلمية ، والاقتصادية .. وإذا بها ترى النور وقد تسمت بالاسم الذي رضيه الشيخ لها ... الجامعة الإسلامية... التي كان لها الدور الأعظم في التعجيل ببناء الجيل الذي راود الشيخ بناؤه ليتولى كنس الاحتلال ...بدأت الجامعة عملها – فعلًا – بعد عشر سنوات من الاحتلال كما قدر الشيخ

... عشر سنوات !! يتولى قيادتها واحد من الإخوان المسلمون ... ولكن لابد أن يكون المنهاج هو الإسلام فهو منهج الحياة ... وفعلًا أوكل الأمر لنفر من القامات من غير الإخوان

***

نضجت فكرة الجهاد في صدور الكثير ، ومنها صدر مريم .. وكان القرار (شراء السلاح) ... فكان .. ولكن لحكمة أرادها الله عرفت المخابرات الصهيونية بالتشكيل العسكري الذي يقوده أحمد ياسين ، فطوردت قيادته، وألقي القبض عليهم وأودعوا السجون .. أحمد ياسين ، إبراهيم المقادمة ، صلاح شحادة ، عرب مهرة ، عبد الرحمن تمراز ، محمد شهاب ... وصدرت بحقهم أحكام قاسية ..إلا أن الشيخ الذي حكم عليه بثلاثة عشرة سنة قال بإيمان الواثق : هذا حكم البشر ، ولا ندري ما حكم الله ، وإن هي إلا سنة ونصف إلا والشيخ حر طليق .. فقد كان اسمه من أبرز من اشترط أحمد جبريل (قائد الجبهة الشعبية – القيادة العامة) أن يفرج عنه لتتم عملية تبادل بين 1150 بطل فلسطيني من سجون الاحتلال مقابل الإفراج عن ثلاثة جنود صهاينة وقعا في أسر أحمد جبريل ، ابتهجت مريم لتحرير أستاذها الشيخ ، وعودته إلى العمل الجهادي الدعوي ... كانت مريم قد انصهرت في العمل الدعوي مع أخريات ، وكانت الجامعة قد شبت عن الطوق .. وأضحت بنات الجامعة بالمئات ثم الآلاف، قد انضوين تحت راية الدعوة ليبرز من بينهن القديرة مريم فرحات، التي لم تلتحق بالجامعة، وقد أخذت اسم عائلة زوجها ، بعد أن كانت مريم محيسن (قبل الزواج) ... والتي عرفت بين الشابات بكنيتها التي اشتهرت بها فيما بعد (أم نضال فرحات) ، اتسم مجلسها وعملها بعدم التزاحم ، والأثرة الشخصية بل الإيثار ، لم تكن لتسمح لخاطرة

تعن لها بالغيبة أو النميمة ، وكذلك صاحباتها والتي انضمت إليهن الداعية أروى الريس حافظة القرآن ومحفظته ....

***

سارت الحياة بأم نضال رتيبة ولكنها منفعلة ومفعمة بالعمل والدعوة .. شب أولادها على الارتباط بها وبالمسجد وقد رزقت بستة أبناء كانوا قرة عين لها ؛ نضال وحسام ووسام ومؤمن ومحمد ورواد ، وأربع بنات :إيمان وإنعام وإلهام وإيناس ...ربطتهم بالمسجد وبحلقات العلم فيه ، كما ربطتهم بالقرآن وقصص الأنبياء في البيت وكانت لهم قدوة ، لا تقبل من أحدهم فتورًا ولا خروجًا ...رأت إيمانًا يومًا وقد جاءت بملابس مدرسية لا تتحقق فيها شروط اللباس الشرعي : أن أراك بالكفن أهون علي – يا حبيبتي – من أن أراك بهذه الملابس ، أتحبين أن تدخلي جهنم ...كانت صارمة بكل رقة ولطف وعطف وحنان ، تصل فكرتها إلى قلوب أولادها قبل أن تصل إلى آذانهم ، لم يسمع واحد منهم أن اغتابت أحدًا قط ... وكان أشقاؤها وشقيقاتها يعرفون ذلك فيها ، فكفوا عن الخوض في أي حديث تكرهه ، شقيقها أحمد ذهب إلى مصر .. ليغيب عن الوطن، فلا تقطع معه حبل ود ، وتذكره بواجباته تجاه دينه....

****

وظلت تنادي أسعد بيا (حبيبي يا خوية) وتبتسم لشقاوته دومًا

***

(الانتفاضـــــة)

تنامى هذا الجيل وترعرع .. صار أكثر تحديًا للاحتلال وأذنابه ، وأكثر وعيًا وانطلاقًا ، والتزامًا – جيل من الشباب والفتيات .... أخذ يدور أمام ناظريها شريط الماضي ...يرن في سمعها تهكم العفريت أسعد (يا فتوة) نعم معه حق ... كنا حاسرات الرؤوس ولا نبالي بما يغضب الله، ولكن هكذا كانت النساء، كل النساء، ولا ينظر المجتمع إلى ذلك نظرة غرابة أو استنكار ،وأما اليوم فلا ... وكانت سيقاننا مكشوفة ، واليوم لا ، فلا تكاد تجد امرأة مهما صغرت أو كبرت من تخرج ويراها الناس كما كنا في الماضي .. تشخص إلى بارئها لتدعو للشيخ يعقوب والشيخ أحمد .. وتحاول أن ترحم نفسها من جلد ذاتها : كنت أكره اليهود وما أزال ، وكنت متعلقة بالتدريب العسكري في الفتوة وما أزال ، وكانت تشدني صورة الجندي الواثب من القدس إلى يافا وما أزال ...وكنت .....

سمعت طرقًا على الباب ... خرجت ...

- أهلًا أم حلمي ...
- جئتك بخبر حزين .. حدثتها أم حلمي عن حادث المقطورة ، لقد سحقت مقطورة صهيونية عددًا من العمال الفلسطينيين ، سمعت مريم الخبر ، فشهقت محوقلة ومسترجعة ...أضافت أم حلمي : وها هم الشباب يشعلون النار في إطارات السيارات ، ويضعون الحواجز أمام عشرات من السيارات العسكرية

- تنهدت أم نضال : الحمد لله ، أخذ هذا الجيل دوره .. غير هياب من بطش اليهود .. كسر حاجز الخوف سيكون لهذا الأمر ما بعده ..

***

جرى الحديث بين الصديقتين وتشعب إلى مسارب شتى .. التشكيل العسكري المسلح الذي اكتشفه الصهاينة في بدايات بدايات تكوينه ....صفقة التبادل التي تحرر فيها الشيخ أحمد ياسين ... صدامات شباب الجامعة الإسلامية مع الجنود الصهاينة التي تكاد تكون أسبوعية ... تقدم الكتلة الإسلامية في جامعات الضفة الغربية ؛ النجاح – بيرزيت ، سنة بعد سنة إقبال الناس على الدين ، انحسار المد الشيوعي والقومي ... الحرب الأهلية في الأردن ولبنان ، وخروج الفصائل الفلسطينية اليسارية والقومية والعلمانية من لبنان وتفرقها في أقطار بعيدة ...تونس والسودان واليمن .. تخاذل العرب عن نصرة المسجد الأقصى .. ازدحام السجون الصهيونية بالشباب الفلسطيني ، كانت أم نضال تستذكر كل ذلك مع صاحبتها، بينما كان ذهنها مشدودًا كقلبها مع مشعلي الإطارات وقاذفي الحجارة على الاحتلال .. وفجأة أخذت مكبرات الصوت في المساجد تدعو الناس كل الناس للخروج في مسيرات ضد الاحتلال استنكارًا لجريمته .. خرجت الصديقتان فورًا بلا استئذان من أحد .. لم تبحث أم نضال عن أولادها وتمنت أن يكونون جميعًا في مقدمة المسيرات .. ازدحمت الأزقة .. لعلع رصاص الاحتلال .. ارتقى شهيد .. وآخر ... وثالث ... انقلب جيب عسكري صهيوني .. سيطر الشباب على سلاح أحدهم ... الحجارة كالمطر .. ظهر جبن الصهاينة ... أخذوا يفرون من الساحة ... لا يقوون على ملاقاة الصبية .... والفتية ... والشباب ... رأت أم نضال سيدة تحمل الحجارة في حجرها ... وتلقي بها في طريق الشباب ... يتناولونها ...

يضربون بها رأس الاحتلال ... تسمع صوت خليل القوقا : هم شبابك يا فلسطين ، يرجمون الصهاينة كما يرجم الصبيان الكلاب الضالة ، لا بل كما يرجمون فاجرة ... تتقدم الجحافل الفلسطينية .. يمضي اليوم الأول ، والثاني والثالث ، والمائة والألف ... يبرز اسم حماس ... لا يتوقف الشعب عن رجم الصهاينة .. يعلن رابين عن سياسة جديدة لمجابهة أطفال الحجارة ...تكسير العظام .... لا يبالون بعظامهم حتى لو تهشمت .. يأتي خبر محمد حمدان الذي قطع رقبة جندي صهيوني وخبر عطوة أبو سمهدانة يفعل نفس الفعل .. الأول من حماس والثاني من فتح ... امتلأت السجون بالشباب .. يضطر الاحتلال إلى أن يفتح معتقلًا في صحراء النقب يتسع لعشرات الآلاف .. صرح رابين بأوهامه (أتمنى أن أستيقظ ذات صباح فأرى غزة قد ابتلعها البحر) كل مدن القطاع وقراه تحولت إلى ساحات كر وفر .. صدام بين الحجر والرصاص .. كوادر من حماس يعتقلون ... يتحدث الناس عنهم أنهم ألهبوا مشاعر الشباب ضد الاحتلال وتقدموهم في الصفوف الأولى ؛ طلاب الجامعة الإسلامية يأخذون زمام المبادرة في كل مدينة وقرية .. تشتعل الضفة الغربية من الظاهرية إلى يعبد .. جن جنون الاحتلال .. أم نزار فياض تودع نزارًا إلى الجنة بزغرودة .. يحمل الشباب جثث الشهداء وهم يهجمون على جنود الاحتلال :

بالروح بالدم نفديك يا شهيد ..... بعض الظرفاء ينظم هتافًا :

بطلنا اندلع بطلنا اندلع .... نرمي مولوتوف ع الجيب يولع

لم يعد إعداد زجاجات المولوتوف حكرًا على خبراء حرب العصابات صار يتقنها أطفال في السابعة فما فوق من أعمارهم ... أغاظ الصبيان جنود الصهاينة :بيعوا و اتريح منو ... بيعو ... بيعو... يأمرونهم ببيع أسلحتهم .. اندمجت أم نضال وأولادها في هذا الخضم ...

تنتقل من سرادق شهيد إلى سرادق شهيد ... تشد من عزائم الثكالى .. وتصبر الزوجات والأمهات ...تحولت مع زميلاتها إلى حركة دؤوب لا تتوقف أبدًا ... صابرة ومحتسبة ... وعند أوبتها في المساء تنادي أولادها (إياكم والتخاذل ... إياكم أن تترددوا .. وإياكم من عدم تجديد النية على نيل الشهادة ... توضأوا وصلوا ركعتين قبل خروجكم إلى الميدان ... اقرأوا سورة الإخلاص على كل حجر تقذفونه على هؤلاء المجرمين ...هل تبرعت بالدم يا وسام وأنت يا حسام ... خالك أبو رواد كان شجاعًا يا رواد .. احرص أن تكون مثله .. لقد تصدى للاحتلال – يا حبيبي ... وغادر القطاع بعد ذلك إلا أنه لم يجبن ، فالشجاعة لا تقصر عمرًا ، والجبن لا يطيله ...) امتلأ نضال وأخوته بقوة دافعة جعلتهم في مقدمة شباب الانتفاضة ،فأتقنوا فن الهجوم والتخفي في الأزقة والانسحاب في الوقت المناسب ، وما يعودون إلى البيت إلا إذا انسحب الجنود وأخلوا المكان ... كانت هذه بمثابة انتصارات ، كشفت زيف الاحتلال وما اشتهر عنه بأنه(الجيش الذي لا يقهر)وأنه صاحب اليد الطولى في ملاحقة خصومه واغتيالهم ، نعم اغتالوا أبا جهاد، وأبا إياد ، وأبا الهول .. بل واغتالوا معظم آباء حركة فتح ولكن غدرًا ، وجاسوسية ، مما جرده من الأخلاق والمثل ، ومفاهيم الحضارة ، خاصة بعد أن شاهد العالم ما يفعل بأطفال فلسطين ، وما يقنن له الكنيست من أساليب التعذيب والملاحقة ووسائل الوصول إلى غايات دنيئة لا أخلاقية ؛ من ترويج تعاطي المخدرات وتسهيل الحصول عليها ، ومن إسقاط الأنذال في مستنقعات الرذيلة والغواية والشهوات ... كانت أم نضال حادة وصارمة في صراحتها مع أولادها ، لتحذيرهم من رفقاء السوء ، فكثيرًا ما كانت تردد... يا حبايبي الصاحب ساحب ، وتدعم أقوالها بالآية الكريمة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) وقوله (خذوا حذركم) وقوله (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًا) ... كم كرهت أم نضال أبا رغال وأشباهه ، وكرهت ابن

سلول وكرهت العملاء وتمنت لو تقضي عليهم جميعًا ... كم فرحت عندما استمعت عن قتل (الذباح) وقد علمت أنه كان مسئول شبكة من العملاء والعميلات ، فقالت بابتهاج : تسلم يد البطل ، وتصورته ذلك الجندي الواثب من القدس إلى يافا ... وسرحت في أحلامها كالعادة ، فتخيلت أنها هي التي أعدمت ذلك الحقير ..

***

كانت تقلق بسهولة على اعتقال القيادات ، وكانت تتابع قصص تحديهم لضباط التحقيق ، وصمودهم ، فلا يفشون بسر مهما لاقوا من عنت وتعذيب ... كان نضال وحسام من أهم مصادر تلك القصص ، وكان وسام أكثر هدوءًا وأقل كلامًا ، وأما رواد فكان من أكثرهم حديثًا عن الشهادة والشهداء ... يردد أسماءهم وأماكن سكناهم ، فتنظر له أمه بعين أم مشفقة خائفة مترددة ، وأما العين الأخرى فعين المحرضة والحريصة على أن ينال ابنها شرف الشهادة .. كأنها قد انشطرت نصفين ، كانا في صراع دائم ، فإذا تغلبت الأم الحريصة على حياتهم دق قلبها خوفًا من فراقهم ، وإذا تغلبت عاشقة الجنة هان المال والولد والأهل وسكن الخوف ، وحلت الطمأنينة ، وشعرت بالسكينة ، واستسلمت للقدر الذي أخذته عن شيخها يعقوب أنه خير في السراء والضراء ، فإذا ما عادت (الأم) إلى عقلها انتفضت هروبًا .. فتتصل بأم حلمي ،مرددة .. لن يكون في ملكه إلا ما أراد .. فتخرج معها لتزور الجرحى ، ثم إلى بيوت العزاء أو بيوت المحررين من السجون .. تبكي بصمت على من فقأ الرصاص المطاطي عيونهم ، أو بتر الرصاص الحي أذرعتهم أو سيقانهم ... وقفت طويلًا عند سهيل ، الذي خرج مخه من بين عظام جمجمته المهشمة ، رأته في حالة موت سريري ، وقد تشابكت غابة من أسلاك الأجهزة على جسده النحيل ذي السبعة عشر عامًا ، فقدت

صبرها ، وأجهشت بالبكاء ،وأجهش كل من هو معها حتى الدكتورة التي تعودت – بحكم مهنتها – على ذلك ، وأخذت صورة رواد تطن في رأسها ، ثم استقرت على السرير بدل سهيل .. استمع الزوار في ذهول وهي تنادي .. رواد ... رواد .. كيف حالك يا حبيبي وهي تمرر يدها على خد سهيل ، ولكن سرعان ما عادت إلى واقعها بعد أن أخذتها أم حلمي إلى ركن آخر بعيد ..

***

كانت سيارات الإسعاف لا تتوقف عن نقل المصابين والشهداء .. وتجرأ اليهود على القتل كما لم يتجرأوا من قبل ، وأما السجون فقد امتلأت حتى لم يعد فيها متسع ، يتحول الإنسان فيها إلى مجرد رقم ...يؤخذ الشاب من بيته ، وغالبًا ما يكون ذلك في الثلث الأخير من الليل فيأتي عشرات الجنود ، وعلى أكتافهم سلالم من أخف المعادن وأصلبها يطويها الجندي ، ويحملها في حقيبة على ظهره .. وما أن يصلوا إلى بيت المطلوب حسب قوائم أعدت سلفًا إلا ويفردونها ثم يركنونها مائلة على الجدار ويقفزون إلى داخل المنزل ، فيفاجأ صاحب البيت بعشرات الجنود يوقظونه بأحذيتهم الثقيلة ، ولا يبالون بحرمة بيت ولا بوجود أطفال أو نسوة ..... وصل إلى مسامع أم نضال أن عبد العزيز الرنتيسي قد اقتحم الجنود بقيادة ضابط المنطقة أبو رامي منزله .. فوجئ عبد العزيز أن أبا رامي ومعه عشرة جنود يقتحمون عليه غرفة نومه ، فهب لتوه صارخًا : يا كلب أتدخل علي غرفتي وتنتهك حرمة البيت ، وسدد إلى وجهه ضربة بمجمع قبضة يمينه ، فما كان من (الكلب) إلا أن تراجع .. ثم أمر جنوده بمغادرة المنزل .. كانت أم نضال تحدث كل بيت بهذه القصة شأنها شأن كل فلسطيني يتغنى بقصص البطولة ، لكن أم نضال كانت تسردها في مناسبات مختلفة .. ففي

العزاء .. دخل الكلب (أعزكم الله) أبو رامي .....إلى أن تصل إلى القول : الأعمار بيد الله يا جماعة ، فلو قدر لعبد العزيز الموت لقلته الجنود .. وإذا كانت بين أولادها قصت عليهم القصة ليقتدوا بعبد العزيز ، وتختم: هكذا يكون الرجال ،وإن كانت مع فتيات الانتفاضة كانت القصة حديث التحريض على المواجهة ،وتختم بقولها : إن الشجاعة لا تقصر عمرًا ، والجبن لا يطيله .. فالأعمار بيد الله .....

****

فغرت السجون أفواهها فابتلعت أولاد أم نضال ، وكان أولهم نضال الذي انصهر مع أخوته في الانتفاضة، ولكنه كان أكثرهم غيابًا عن البيت ، كما كان أكثرهم صمتًا وإصرارًا ، وقد ورث عن أمه رقة الطبع وسلاسة الكلمات والنفور من الجدل .. ولعل طرائق الصهاينة في الاعتقال هي هي لم تتغير .. الطرق المدوي على الأبواب المغلقة ببصاطيرهم ليسمع كل من في الحي بغية نشر الرعب ، الأمر الذي يفضي – حسب ظنهم – إلى ترك الفلسطيني للفعل المقاوم، وبهذا جاءوا إلى منزل أبي نضال .. سارع الرجل بفتح الباب بعد أن تتالى الطرق العنيف ، والمصحوب بأوامر أشد عنفًا .. وأيضا بأصوات مدوية تمزق سكون الليل ، افتح الباب – إحنا الجيش .. وما أن فتح أبو نضال الباب حتى انهال عليه الجنود رفسًا وزجرًا ، ودفعًا إلى الجدار .. وعلى عجل توجهوا إلى الغرف ... صرخ أبو نضال .. منبهًا إلى وجود حريم ... كان كل من في البيت قد أفاق ... واندفعت أم نضال وبناتها إلى ارتداء أغطية رؤوسهن والتحفز لتلقي المفاجآت .. فتحن أبواب غرفهن ... وكذلك فعل من في

البيت من الأبناء .. استعرض الضابط البطاقات الشخصية لهم .. أمر الضابط نضالًا باصطحابه إلى الخارج ..

- سأل أبو نضال : إلى أين ؟

- صرخ الضابط مهددًا : اسكت ، ولوح بقبضته ، وأردف : اخرس ..

- قالت أم نضال : الله يخرسك

- تشجعت إيمان : أنت قليل أدب ...

أشارت لها أمها بالسكوت فسكتت

توجهت أم نضال لابنها .. خليك راجل يا حبيبي ، السجن للرجال ، وما بني السجن على رجال ، وإن الله سيأخذ السجن والسجان إلى زوال عما قريب ... خرج نضال وعلى شفته ابتسامة بعد أن دفعه الجندي .. إلى الخارج وقد منعه من مصافحة والده ووالدته ، خرج مشيعًا بدموع البنات وأمهن ... مع الدعاء الذي لازم قلب أم نضال ولسانها ، لا يتوقف لسانها عن الذكر والدعاء منذ أن عرفت فضلهما من الشيخ يعقوب ...

***

ألفت الحارة طرقات الجيش على باب أم نضال في الهزيع الأخير من الليل ، فما أن يخرج أحد أبنائها من السجن، حتى يعود إليه وكأنهم يدورون مع باب دوار يخرج ليدخل ، ويدخل ليخرج ... ولقد حفظ الجميع الكثير من السجون والمعتقلات الصهيونية فقد سجن نضال في (أنصار 2 وكتسيعوت وعسقلان) ، مددًا بلغت خمس سنوات ، وتنقل وسام بين سجون عسقلان ونفحة والرملة إحدى عشرة سنة دفعة واحدة ، فأما حسام فقد تنقل كأخوته ما بين

كتيسعوت وعسقلان والرملة خمس سنوات ... وصارت الإجابة حتى على لسان الصبية سهلة وتلقائية إذا ما سأل سائل : أين الطرق هذا؟ فيكون الجواب ؟؟ على باب دار أم نضال .. ليصبح بيتها مزارًا لصاحبات أم نضال ، وجاراتها .. بل وعشرات من بنات الجامعة .. بغية أن يشددن من أزرها .. فلا يجدن منها إلا أنها تشد من أزرهن ....

****

(القسام .. وبدايات العمل)

لاقى المعتقلون من العنت والعذاب صنوفًا ... فمنذ اللحظات الأولى لمغادرة الشاب من بيته ، وبعد أمتار ينهال عليه الجند بقبضاتهم وهراواتهم وأحذيتهم ، بعد أن يقيدوا يديه بقيود بلاستيكية في رأس الواحد منها مجرى يسمح بدخول الطرف الثاني ولا يسمح بخروجه ... وكلما حاول الشاب توسعة القيد كلما ضاق ، حتى ليكاد يقطع معاصمه المقيدة إلى خلف ظهره ، فضلًا عن عصابة تشد على عينيه وإلى مؤخر رأسه ، يتعمد الجنود إلى سحبه كما لو كان دابة أو حيوان وأحقر .. وبعض الشباب كانوا يقيدون بالأيدي والأرجل ، مع فارق أن المعاصم متلاصقة وإلى خلف الظهر ، بينما القدمين متباعدتين تسمح بالحركة لنصف خطوة، كي تعطي للجندي مبررًا لمزيد من الدفع والركل والخنق، ليجدوا أنفسهم وقد زج بهم في عربات مصفحة نصف مجنزرة ، وقد اضطرهم الجند إلى أن ينبطحوا على بطونهم بأيديهم المقيدة إلى الخلف، وعيونهم المعصوبة ، وأما الجند فيجلسون على جانبي العربة وقد داسوا بأقدامهم على أجساد المعتقلين ورؤوسهم ، فضلًا عن الركل و الدوس بأحذيتهم الثقيلة التي كانت تؤدي أحيانًا إلى اندفاع الدم من فم المعتقل أو أنفه ، وتنتشر الكدمات في وجهه وحول عينيه وفي رأسه ... كانت الأحكام قاسية ، والتهم – غالبًا ما تكون – ملفقة .. ولا غرابة ... فقد ظن اليهود في بدايات الانتفاضة أنهم كلما شددوا في وسائل الاعتقال وصنوف التعذيب فإنهم ينهون الانتفاضة ، ولكن سرعان ما يخيب فألهم ....

***

خرج محمد أبو نقيرة وقد امتلأ غيظًا وكراهة للصهاينة، وكان قد صمم على أن ينتقم من معذبيه ، ولا يكفي الحجر ، فأخذ يبحث بكل سرية وإصرار حتى وجد كارلو غوستاف ، ووجد من يدربه عليه ، وفي المقابل عادت الذكرى بالصهاينة إلى بداية احتلالهم لقطاع غزة قبل ما يزيد على عشرين سنة ، فأخذوا قرارًا بالضرب بيد من حديد على من تسول له نفسه بالعمل المسلح ..... أخذ محمد سلاحه ، مودعًا –بصمت – أباه المسن النحيل الفقير، فقد كان نائمًا وأمه وأخواته وأخوه الوحيد ..... خرج على رؤوس أصابعه – ويده على الزناد – في وقت يحظر على الفلسطيني فيه أن يتحرك خارج بيته .. خرج وقد غرقت رفح في ظلام دامس ، فالصهاينة قد قطعوا التيار الكهربائي منذ ثلاثة أسابيع ، وضربوا على القطاع حصارًا منذ شهر ، فلا يسمح بدخول البضائع لغرض تجاري ، فيتجلى التكامل الفلسطيني في أسمى معانيه ... ذابت الفصائلية والأنانية ، وذابت الإحن والخصومات ، حتى لا يستطيع الجاهل أن يميز بين المشيعين لجنازة الشهيد؛ فمن أبوه، ومن أخوته ؟ فالحزن يلف الجميع والإصرار على المواجهة من الجميع ، وعشرات من العيون الدامعة تودع الشهيد....خرج محمد من بيته تاركًا والده المريض بالسكر وخشونة المفاصل ، تضطره لأن يمشي ببطء شديد بقامته النحيلة ، وكأنه يجر قدميه بصعوبة وهو في طريقه إلى المسجد أو السوق، الذي اعتاد أن يبيع فيه بعض الأعشاب؛ من بقدونس أو نعنع أو عين جرادة ، ليعود إلى بيته بعد أن يصلي الظهر في مسجد الأبرار الواقع في قلب السوق ببعض الشواقل، يأخذ محمد نصفها – أو أكثر – فهو الطالب في الجامعة الإسلامية .

كان محمد قد اعتقل في بداية الانتفاضة ، ولم يبلغ العشرين من عمره بعد ، وقد تعرض لصنوف شتى من التعذيب على يد المحقق جافي والمحقق أفرح في (أنصار2)، المقابل لشاطئ غزة ، وكان اعتقاله في زمهرير الشتاء الذي كان مصدر تعذيب لا يطاق للمعتقلين

، فلقد انتهز الصهاينة البرد لإجبار الشباب على الإدلاء باعترافاتهم ، فكانوا يجبرونهم على الوقوف معصوبي الأعين، مكبلي الأيدي إلى ظهورهم بالأيام التي قد تصل إلى أربعة أو خمسة في عز برد يناير (كانون الثاني) مضرب المثل، وهم لا يرتدون إلا قميصًا فقط فوق بنطال ، حتى إذا ما انتهى التحقيق حملوه في رحلة عذاب إلى (كيتسعوت)، الواقع في منتصف الطرف الغربي لصحراء النقب ،حيث البرودة التي تفري العظم شتاءً ، وحرارة الشمس اللاهبة صيفًا...

خرج محمد من معتقله وقد امتلأ إصرارًا على الانتقام ، كما امتلأ يقينًا بأن الحجر لا يصلح وسيلة لمجابهة هؤلاء المجرمين ، ولا زجاجات المولوتوف ، فقط هو الرصاص ، ورغم ما جرى بينه وبين زملائه ومسئوليه من حوار، كان يشتد أحيانًا في محاولة بدت يائسة على ألا يتعجل، إلا أنه كان يتشبث بفكرته وبإصراره ...

***

خرج محمد إلى الشارع المظلم ، الخالي إلا منه ، من زقاق إلى زقاق ... ليقطع الطريق إلى الحارة الغربية من بيته ، ثم، ومن أزقتها إلى بيارة صبح القاضي، التي شهدت اغتيال زيدان الأخرس وخضر يوسف الجزار ، قبل حوالي عشرين سنة ،وكانا من أشجع فدائيي قوات التحرير، التي يقودها – أيامئذ – صبحي أبو ضاحي بتكليف من ذيب (العراقي) وفيصل(السوري) ...كَمَنَ محمد وفي يده قنبلة (ميلز) هي كل ترسانته مع كارلو غوستاف ، كان أبوه قد عثر عليه من مخلفات الجيش المصري إثر هزيمة (النكسة) وأودعه باطن الأرض بعد أن كفنه بلفائف من البلاستيك ، ليبعثه محمد من جديد ... ومرت ساعة وساعتان وثلاثة .. حتى انبلج الفجر، وإذا بجيب (الصرصور) يمشي على مهل بمحاذاة البيارة

ليفاجئه محمد بالقنبلة، التي سرعان ما انفجرت لتقتل الضابط ، وبحركة سريعة فتح محمد النار من (الكارلو) الأمر الذي شد انتباه الجنود الذين سارعوا بتحويل فوهة رشاش الجيب (عيار 500) إلى مصدر النيران، التي سرعان ما توقفت ، وبعد دقائق كانت قوات صهيونية قد وصلت إلى المكان في حماية طائرة هليوكبتر ، وأخذت تمشطه ، فتكشف عن شاب ملقى على الأرض، وقد اخترقت رصاصتان بطنه فغرق في دمائه ،ولم يفارق الحياة بعد ، فاقترب منه ثلاثة جنود بحذر شديد تحت غطاء كثيف من النيران حتى وصلوه ، فداس أحدهم على صدره... يقول بشار : اقتادوه إلى بعيد .. إلى مكان مجهول .. كان ضابط المخابرات أبو سليمان يعرف محمدًا جيدًا ، فقد خبره في اعتقاله الأول .. عذبه ..حطم عظامه ...لم يعترف بشيء .. لقبه بـ(العنيد) ..والآن .. ها هو العنيد بين يديه مصابًا .. دمه ينزف ... ضغط على جرحه .. لم يقدم له العلاج .. صراخ .. وتهديد.. وإباء (عناد) .. لم يعد في جعبة أبي سليمان إلا أن يضع حدًا لهذا العنيد ... أخرج حقنة فارغة .. إلا من الهواء .. أفرغه في شريانه .. ثم سلم جثته لوالده الحزين عند الفجر...

***

لف الحزن رفح ، والتي تحولت إلى جنازة لمحمد ، ضمت الآلاف إلا شيخًا نحيلًا ، يعاني من خشونة المفاصل والسكر ، وقف متأرجحًا مستندًا إلى جدار منزله، تسيل دموعه بغزارة مودعًا ولده ، وبجانبه زوجته التي أخذت تلوح للشهيد مودعة ، وبين حين وحين تطلق الزغاريد، مما فجر الأحزان ينابيع من الدموع في قلوب النسوة والصغار حتى الرجال...

***

كان إبراهيم عاشور صديقًا أثيرًا لمحمد، فأصر على الانتقام .. وهكذا انطلقت رصاصات القسام من مدينة إلى مدينة ؛ انطلقت من رفح ليتردد صداها في قلب جميل وادي فيطرب لها في خانيونس ، وأحمد انصيو في شاطئ غزة ، وعماد عقل في جباليا .. أربعة شباب لم يتجاوزوا العشرين من أعمارهم، قد احتضنهم قلب أم نضال جميعًا .. أم نضال التي اختزنت في فؤادها ذكريات النكبة بكل أحداثها وقسوتها ، وبكل تفاعلاتها ، اختزنت عذابات عمها أبي أحمد مهنا ، والتشريد والقهر، وعاشت جرائم الاحتلال الصهيوني لغزة إثر العدوان الثلاثي ، وكيف بترت ساق العم أبي خليل ، وكيف تقطعت أوصال الشيخ زكريا الكفيف ، وعاشت مرارة هزيمة يونيه (حزيران)سنة 67 ،وذهاب الملازم مصطفى والأستاذ عبد الرؤوف والأبلة سوزان ... والجرحى والقتلى .. وعبد الناصر وها هي وجهًا لوجه أمام الانتفاضة لتندفع إلى قلبها ؛ ترعاها وهي تكبر وتتطور ؛ من حجر في يد طفل إلى مولوتوف في يد شاب إلى قنبلة في يد محمد أبو نقيرة ، وإبراهيم وجميل وأحمد وعماد طليعة جند القسام ، وليسمع العالم بمصطلح جديد (المطاردون)

***

(مريم الأم ....والمجاهدة أم نضال)

ترك الفرسان الأربعة – على غير ما اتفاق فيما بينهم – منازلهم التي عرفها الصهاينة بعد أن عرف بأمرهم ، فأخذ جنوده يداهمونها بين وقت وآخر بحثًا عنهم، كما وضع عيونه في كل مكان، لرصد تحركاتهم، واتخذ المطاردون الأزقة ملاجئ، والحاويات أو العبارات أو رؤوس الشجر منازل، أو أماكن مبيت ، ويبرز اسم عماد ، كما لو كان نجمًا ساطعًا يمد الكواكب فيما حوله بالنور رغم قصر قامته، وحداثة سنه ، حتى كان يتندر عليه زملاؤه بأن بارودته أطول منه ، كان كالفهد خفة ورشاقة وجرأة ، ووثبته لا تخيب كما رصاصته، في الوقت الذي يظن محدثه أن الدم ممزوج بالعرق قد بلل خديه إذا سمع أحدًا يمدحه أو يثني عليه أو يشكره .. سبق لعماد أن اعتقل في كيتسعوت؛ ذلك المعتقل الرهيب ، الذي بناه تسيمح (أحد الجنرالات العتاة لسلاح المهندسين الصهيوني)، وأول مدراء ذلك المعتقل ، وحقق ذلك الجنرال شهرة خاصة بعد أن قمع احتجاجًا لمعتقلي أحد أقسامه بجيش كامل العتاد ؛ من رصاص حي ومطاطي ،وبنادق الغاز الحارق الخانق ، والمسيل للدموع والهراوات ،وعندما دخل الشباب خيامهم المهترئة صرخ تسيمح ... يا نسوان ... من يظن أنه (قبضاي) فليخرج ، فخرج أسعد الشوا فأرداه قتيلًا بمسدسه ، ونفض يديه كأنه لم يفعل شيئًا ، اختزنت ذاكرة عماد عقل هذا المشهد وحرك فيه كوامن الغضب والثورة على ذلك التسيمح، وأصر على أن ينتقم ...كان هذا ما حدث به عماد خالته أم نضال – كما كان يحلو له أن يناديها– وكان يحرص على أن يهدي كل عملية جهادية إلى أرواح الشهداء

، وقد امتلأ سعادة وفخرًا أنه قد انتقم لأرواحهم من قاتليهم، مستحضرًا ذلك الشهيد الذي قتله تسيمح في مردوان (4) من قسم (أ) البشع في كيتسعوت ..

لم تكن أم نضال يغمض لها جفن قبل أن تعيش ساعات في دور الأم لكل من عماد وصحبه ، تعيش انفعالاتهن وخوفهن وشوقهن لأولادهن، الذين لا يكادون يستقرون في مكان ، والموت يلاحقهم، وعيون الجواسيس ترصدهم ، وفوهات البنادق توشك أن تقذف في قلوبهم رصاصها ، تسهر بسهرهن ، تدعو بدعائهن ، لم تكتو بعد بعذاباتهن إذ لم يطارد لها ولد ، نعم داهم اليهود منزلها مرات ومرات ، حشروا أبناءها في غرف المنزل ، كل واحد في غرفة ، وارتجوا عليهم، وانهالوا عليهم ضربًا ، وقد تلبستها روح أم إسماعيل وقلبها ،وهي تجري ما بين الصفا والمروة، باحثة عن الماء ،أو من يأتي به لإنقاذ إسماعيل من الهلاك ظمأً ، لكن الظمأ لأم نضال هو اليهود وهراواتهم ، تجري من غرفة إلى غرفة ، رغم قرب المسافات فيما بينهن ، وتدق الأبواب ، وتوشك أن تحطمها لو استطاعت ، تريد أن تتلقى الضربات بكل كيانها عن أبنائها ، الذين تحطم الهراوات عظامهم .. يتعالى صراخهم بالتكبير ، ويتعالى صراخها كذلك وباللعنات ، وقبضاتها تخبط الأبواب .. وتنقض على الضابط بمجامع يديها . يا ظلمة يا قتلة .. لا يرق لحالها ... وسام رواد حسام يتحطمون ..

- يعلو صراخها في وجهه : لماذا ؟

- لأنهم يشعلون الإطارات، ويكتبون الشعارات ،ويقذفون الجنود بالحجارة
- فتصرخ : أخرجوا من بلادنا .. هل ترضى ذلك لأولادك ؟! في محاولة يائسة أن تنبه عاطفة الأبوة في صدره ، ولكن لا سبيل ..

يخرج الثلاثة وقد غرقت ملابسهم بدمائهم ، وتورمت أيديهم ووجوههم ، وقد أمسك الجنود برؤوسهم وأعناقهم، يجرونهم إلى الجيبات المنتظرة ، تعلو ابتسامتها شفتيها .. أنتم رجال .. ارفعوا رؤوسكم .. أنتم مجاهدون ...وهؤلاء المجرمون جبناء .. لا تخافوا... فتشتعل الحماسة في عروقهم ، وتنتصب قاماتهم مرددين بالنشيد الخالد : الله أكبر ...

***

وما إن يتوارى الثلاثة عن ناظريها، وقد حال الجنود بينها وبين اللحاق بهم مودعة ، حتى تتهاوى في بكاء لا يكاد ينقطع ، تنتفض من داخلها (الأم)بكل حنانها ،بكل دموعها ، بكل قلبها الخفاق ،بكل أحاسيسها وعاطفتها ، وتتوارى أم نضال المتحدية المحرضة على القتال والجهاد ، تتوارى الصابرة خلف المفجوعة بفقدان ولدها ، وكأنها ما نذرتهم للجهاد ، وما أعدتهم للشهادة ، تتوارى المرأة القوية التي لا تهاب الموت بل وحببته إلى أبنائها جميعًا على أن يكون في سبيل الله من يوم أن عادت من ليبيا ،بعد رحلة امتدت لخمس سنين رفيقة لزوجها ؛ الباحث عن الرزق في بلاد العقيد الذي صبغ الحياة ترفًا ومجونًا وثورة زائفة ، وأرغم التلاميذ على ارتداء الزي العسكري ، ومنهم أولادها فرفضته أم نضال لابنتها إيمان، لأنه يتنافى مع مبادئ الإسلام ، وإن أمر به العقيد ، فقالت : أن أراك بالكفن أهون علي من أن أراك بهذا اللباس ، وأقنعتها بترك مقعد الدرس وعليه ملابس العقيد إلى القعود في البيت ، ومعه الكتاب والصحيفة والقرآن والحديث والتطريز والحياكة...

تغرق أم نضال في أحزانها ، وتشرق في دموعها ، ويبح صوتها وهي تنادي : وسام ... رواد ... حسام .. يدخل زوجها... يغالب دموعه .. ينزوي .. يعود إليها مادًا يديه .. تنهض معه ملبية :

- لا حول ولا قوة إلا بالله
- يردد على مسامعها : الحمد لله .. هم أحسن حالًا من غيرهم .. المستشفيات تغص بالجرحى ،وابن فلان فقئت عينه ، وابن فلان قد بترت ساقه .. وانظري إلى المطاردين .. أين ينامون .. ماذا يأكلون؟!! .. لا يجدون بيتًا يؤويهم ، ولا صدرًا حنونًا يضمهم بعد أن فارقوا الأمهات والأخوات...

تتوارى (الأم) وتتحرك أم نضال ... نشيطة .. باشة .. كأنما ما غشيها حزن ولا فارقت ثلاثة من فلذات كبدها ، وعند المساء تعد طبق العدس أو الفول ، مع كوب من الشاي وهي وجبة العشاء ، تتبادل الحديث مع محمد ونضال ، أتذكرون بداية الانتفاضة ؟ ها هم أخوتكم أبطال .. مجاهدون .. نعم في السجن ...ولكنهم على الطريق الصحيح ، أتذكرون يوم أن دخلت عليكم وأنتم تتظاهرون بالنوم ، وقد رأيتكم نهارًا وعلى وجوهكم الأقنعة ، تتوقف أم نضال ثم تسأل : مع من كنتم تعملون وتناضلون ؟

- يقول نضال ضاحكًا : (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم) الحمد لله يا أمي
- لا ... قل .. مع غير الحركة الإسلامية ؟
- صحيح .. لم نجد غيرها ، ثم إن خالي هو السبب ..
- وأين عقولكم .. أما تربيتم في المساجد ..؟
- سامحينا يا والدتي .. خلاص .. ثم يسرح .. لقد كانت ليلة .. كنا تحت الأغطية .. ثم يضحك ... فتح الباب .. تواريا ... همسنا ... جاءت الوالدة يا ولاد ..وبصراحة امتلأنا

خوفًا ... هنا العقاب من خطأ لا ندريه .. ولكن لا تأتي إلى غرفة نومنا وتفتح الباب إلا لأمر فيه عتاب أو عقاب ...

- وكان السؤال : ماذا فعلتم اليوم ؟ ومع من ؟ أيرضي ذلك ربكم ؟ وأين الولاء لله ؟ وأين البراء ممن دونه ؟ والولاء لله هو العمل بتعاليمه ولأجلها نأتمر بما أمر، وننتهي عما نهى .. نصاحب أهل الحق ،وننفر من أهل الباطل ،حتى ولو كانوا آباءنا ، فما بالك أخوالنا ... يعلو الضحك ..
- امتثلنا يا حاجة .. بارك الله فيك .. وها نحن فارقنا العلمانيين وإلى الأبد ، نعم إن ذلك أغضب خالي ...لكن رضاك يا بركتنا هو الأساس ، وقام وقبل رأسها ....

عاشت أم نضال هذه الذكرى ، وداهمها شعوران متناقضان ؛ شعور بالحزن أغرق الأم على فراقها أبناءها ، وشعور بالسعادة أغرق المجاهدة أن انضوى أولادها تحت راية حماس ....

******

(وأصبحت أم نضال أماً لعماد)

شعر المطاردون بالغربة في وطنهم ، فأقل القليل من يجرؤ أن يفتح لواحد منهم بابه ، لما يتوقع من نسف بيته أو طرده من وظيفته ، فضلًا عن أيام وليال في أقبية التحقيق وما يلازمها من صنوف التعذيب ، إلى فترات سجن قد تمتد إلى عشرات أو مئات السنين .. في الوقت الذي يتشوق أبناء جيلهم من الشباب إلى الانضمام إليهم للتنكيل بمن ينكلون بهم من الصهاينة ، وليحدوا من خطر الجواسيس ، وعندما وجدوا معارضة قوية من الأهل تصل إلى حد التهديد بالطرد أو الحرمان خوفًا من الوعيد الصهيوني والمصير المجهول ، اكتفوا أن يكونوا أنصارًا وعيونًا للمطاردين .. إلا من ترسخت في قلوبهم عقيدة الجهاد والرغبة في الاستشهاد ، وكلا الفريقين كانا في بيت أم نضال ، فالوالد يحذره رغم امتلاء قلبه غيظًا وثورة على الصهاينة ، وحزنًا على الضحايا ، فلا يتوقف لسانه عن سرد أخبار الانتفاضة ، وإجرام اليهود ، وما ارتفع من شهداء ، وما سار في مواكبهم ، يتحدث بانبهار ظاهر عن الجنائز ، وأخذ في ارتياد سرادقات العزاء ، التي كانت تعج بعشرات الألوف من المعزين وكأن الشعب قد تحول إلى عائلة واحدة ، وتعززت ما بينهم من وشائج ، لقد وحدهم الحزن ، ورسم الدم الطريق إلى التحرير . ولكن لا يتصور أن يرضى بذات المصير لأبنائه ، وأما زوجته فكان شعارها : أنت مجاهد ، إذن فأنت على حق ، فلترفع رأسك ولا تبال ... لا تبال بذهاب نفس ، أو بعض نفس ، لا تبال بمال ولا بولد ، لا تبال بمنزل أو تجارة .. تداول

الأبناء الرأيين ، وقلبوهما فانحازوا إلى الجهاد .. فالموت أمر حتمي ، وإجرام الصهاينة لا يتوقف، والحكيم من اختار له ميتة شريفة .. والرزق مكفول ولا شك ، وقد أقسم رب العزة على ذلك (فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون)... ولكن رضا الوالدين واجب ، فكيف يمكن الجمع بين الفريقين ، ويتحقق الرضا ، وكان التردد ، الذي يحسمه حوار قصير، انفرد حسام : أتدرك معنى كلمة مطارد ؟ اسأل نفسك : أين ينام ؟ وكيف يأكل ؟ وكيف يتحرك ؟ أجاب وأسهب... ذرفت دموع الشباب ، عاد وفي قلبه بركان ،ولا تزال في عينه دمعة ، تجمع أشقاؤه من حوله .. ووجه إليهم نفس الأسئلة وأضاف : ألم تعلمنا أمنا أن الجهاد فرض ؟ وأننا على الحق ؟ أليس من الواجب أن نضحي ؟ كانت الإجابة لا تتغير ... (نعم) ... إذن فلنأوِ مجموعة من المطاردين .. وبلا تفكير كانت الموافقة، ولكن فجأة يقول: موافقة الوالدة أمر مضمون ، ولكن الوالد!! ارتفع صوت أم نضال بالتكبير ...

وفي المساء: أأنت عماد ؟ كان السؤال الأول الذي طرحته أم نضال عندما رأت عمادًا لأول مرة ... وكانت غلالة من دموع السعادة قد جللت عينيها اللتين احتضنتا عمادًا .. قال بحياء وحرج ظاهرين : نعم إنه هو .. وأضاف بخفة دمه وابتسامته المعهودة : بلحمه ودمه ... أرادت أن تقبل كلماته ... ولكنها قالت : البيت بيتك يا ولدي .. وهؤلاء أخوتك وخدم لك ... لا تتحرج أبدًا .. وجودك عندنا شرف لنا ...

لم تحسب للصهاينة حسابًا ، ولا للبيت ولا للولد ، لم تحسب لغضبة متوقعة من أبي نضال حسابًا .. ففي سبيل الله ما نلقى ، هو شعار الشيخ عز الدين القسام وصحبه ، ثم وإنه لجهاد نصر أو استشهاد ...

أصبح عماد من هذه اللحظة فردًا من أفراد هذه العائلة المجاهدة

***

كان دخول عماد بيت أبي نضال فرحات بداية وثبة إلى بيت الغول، والذي يلاحقه في تلافيف الحياة الفلسطينية ، وقد نذر رابين لمن يأتي برأسه حيًا أو ميتًا مكافأة بالملايين ، بل ووجه له رسالة يغريه فيها بالخروج الآمن من غزة ، فجوبه رابين بإباء أم نضال وأبنائها ، فلم يغرهم مال ولا أمان ، وفضلوا إشعال النار في بيت الغول ، حتى وإن تمكن ناب من أنيابه بالوصول إلى كبد أحدهم أو أكبادهم جميعًا، كما جوبه برفض عماد الذي قالها: ما عسى يرجو رابين من شاب يريد أن يموت في سبيل الله ، من أجل تحرير بلاده التي يحتلها رابين ،ويؤمن بأن قتل اليهود عبادة .

وقعت كلمات عماد في سويداء قلب أم نضال فسكنه عماد ، وأحاطته بشراييها سياجًا ، رأت فيه ذلك الجندي الواثب من القدس إلى يافا مدججًا بسلاحه ، هي نفس الملامح والتقاسيم ، هي نفس الجرأة ونفس الهدف، هي نفس الطريق والمنهاج ..

وأصبح كل من في بيت أم نضال مطاردًا بعد أن آوى عمادًا ، كل منهم يحوطه برعايته وجميع حواسه، كيلا يقع تحت واحدة منها لأي فضولي أو ثرثار ، فهؤلاء جميعهم عملاء بالفعل، وإن كان بعضهم عميلًا بالقوة أيضًا ، فإن اشتم رائحة عماد أو رآه أو صافحه فلابد أن يتحدث لغيره، ومن غيره لغيره ، حتى يُصبح حديث المدينة بأن أم نضال تأوي عماد عقل ... إذن هي مطلق السرية ومطلق الحذر ، حتى من الأرحام، من أعمام وأخوال إلا أبا نضال !! فكيف يمكن التحايل على أمره... جمعت أم نضال كل إيمانها وذكائها وتدبيرها كي تجتاز هذه العقبة التي ظنتها كأداء ، وجاءت اللحظة؛ بعد أن مكن الجميع لعماد المكان، وامتثلوا لطلبه ، وبنوا له غرفة في باطن الأرض، حملت أم نضال فأسها قبل الجميع

..وأخذت تحفر .. رغم توسلات أبنائها بالكف عن ذلك، فهم يكفونها مشاق العمل الشاق، ولكنها أبت ، فحرص كل واحد أن يحفر عشرة أضعاف ما تحفر أو حتى مائة ... فلا بأس أن تغبر يديها بفأس طالما أعانت والدها في طفولتها باستعماله، عندما كانت تعينه في بناء بيت الطين، أو ترميمه، أو صناعة قالب الطوب ، وها هي تعود للطين من جديد .. فما أجمل التاريخ إن كان أوله متصلًا بآخره ، وما أعذب العمل حتى وإن كان عذابًا وشاقًا إن كان من أجل بناء هذا الوطن ..

***

يوم وليلة؛ كان المخبأ السري قد أصبح مأوى لعماد بدلًا عن أغصان الأشجار والحاويات أو السيارات العتيقة ، التي لا تقي من حر ولا من برد ولا من عيون اللصوص والخونة ولا من الكلاب الضالة ..غمرت السعادة أم نضال وهي ترى جفون عماد وقد أسبلها بسكينة وإحساس غامر بالأمن والأمان، ليعود لوثباته من جديد ، ليعود إلى مكانه وقد اختطف المزيد من أرواح تسيمح وجابي، وكسر من أجنحة رابين وأذرعه، وفقأ من عيون العملاء والجواسيس ..

جاءت اللحظة التي لابد من عدم طردها من زمن أم نضال، جلس الأبناء وأمهم .. من يبلغ أباكم ؟ فوقع الصدمة الأولى قاسٍ ،ولا تؤمن ردة فعل أبي نضال .. فأجمعوا رأيهم أن يقوم بالدور نضال ، فهو الأكبر سنًا، والأقدر على الصبر، واحتمال ثورة البركان المرتقبة، على أن يكونوا معه ...

ف(رأي الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها)

دخلوا عليه.. يا أبت نحن أبناء هذا الوطن ، وأبناء الدعوة والجهاد !! زم أبو نضال شفتيه متحفزًا ، محفزًا ... ها ... أضاف نضال : من الواجب أن نأوي هؤلاء الذين خرجوا من أجل هذا الوطن وأرواحهم على أكفهم ...ها .. وهنا دخلت أم نضال، وبدأت الحديث بصوت يتهدج عن فرضية الجهاد، وركزت على تاريخ أبي نضال في الشرطة قبل الاحتلال ، وكم قتل اليهود من زملائه ؟ وكم شردوا ؟ وكم اغتصبوا ؟ وهو يقاطعها .. ماذا تريدين يا مريم ؟ اصبر .. وما زالت معه حتى ظهرت عليه علامات الرضا والقبول ، وقد شرح الله صدره، فأسلم الأمر إليه .. لم تكن سعادة ، بل أكثر من سعادة ، كاد الأولاد يطيرون فرحًا ، وأخذت أم نضال بذراعيها رأس أبي نضال تقبله ، ثم خرجت ساجدة شكرًا لله أن انضم أبو نضال للكتيبة التي يقودها عماد .. لم يكن أبو نضال يعلم بأن عمادًا في عرينه .. فأمر بدعوته وتأمينه وإبلاغه موافقته ، فطار نضال ليأتي بعماد .. نظر أبو نضال إليه نظرة فاحصة .. أأنت عماد ..؟ نعم يا عمي .. أعادها أبو نضال، وتكرر الجواب مع ابتسامة واثقة .. صافحه معانقًا .. جلس الجميع حول حزمة مشتعلة من الحطب طلبًا للدفء، فالجو قارس، والموسم شتوي بارد ، تحدث عماد كمن اختزن في صدره كلامًا لمئات الساعات عن معاناة المطاردين .. عن أهدافهم ... عن برامجهم .. عن شوقهم للشهادة .. عن حرمانهم من تقبيل أيادي أمهاتهم .. كان الحديث متدفقًا تدفق شلال صاف وعذب .. لا كدر فيه ولا ريح عفن .. بل رائحته زكية، ومؤثرة .. منبهة.. مؤمنة .. رسالية ، حتى استقر الشلال في بحيرته الذهبية .. استقر في صدر أبي نضال : اسمع يا ولدي .. أنا وأولادي وزوجتي والبيت .. كلنا فداؤك .. اعتبر هذا البيت بيتك، وأنني والدك، وأم نضال والدتك ، كانت دموع الفرح هي اللسان الذي عبر به الجميع عن شكرهم وامتنانهم لهذا الأب المجاهد والزوج الوفي ، عقد الحياء ساقي أم نضال ،فأقعدها عن احتضان زوجها لتقبله ، فقبلت يديه باكية

بصوت مسموع بكاءً ضاحكًا ، وكذا فعل الجميع ... وتصبب عرق عماد من كل بدنه ، وصعدت من صدره تنهيدة ارتياح وفرح .. حتى أصبح حنينه للبيت وشوقه لرؤية من فيه يطارده كلما خرج إلى عملية، ولا يتركه الحنين حتى يعود إليه ..

***

أصبح الشغل الشاغل لأم نضال إحاطة عماد بالرعاية ؛ توفر له الغذاء واللباس ، تنظف له سلاحه .. تبادر باستقبال الزوار حتى لو كانوا أشقاءها أو إخوانها أو أخواتها بعد أن تطمئن أنه في مأمنه ، ولن تصل إليه آذانهم أو عيونهم أو مجساتهم إن كان لهم من مجسات .. تغسل له ملابسه ، تشتري له بدلًا عما يبلى منها ،ولا تزال كذلك حتى يوم استشهاده ، تطبخ له أرنبًا مع الرز وسلطة خضار وسلطة فاكهة لأن (الأرانب طعامه المفضل) هكذا قال لها مازحًا لسؤال ابتدرته به : ماذا تحب من الطعام يا ولدي ؟

****

كم كان أصحاب عماد يمازحونه فيما يتمتع به من رغد العيش في بيت أبي نضال ، وعندما ينقل لها ذلك تصر على أن يدعوهم لقضاء يوم أو ما شاءوا من أيام لتصبح أمهم جميعًا .. إبراهيم عاشور .. عبد الرحمن حمدان ... إبراهيم سلامة الذين التحقوا مع عماد بالرفيق الأعلى بعد أن جادوا بنفوسهم .. لتشرب أم نضال كؤوس حسرتهم وتبكيهم بالدمع الغزير ، وتودعهم بقلب يتفطر لوعةً وأسىً، في الوقت الذي كانت تحضهم فيه على مواصلة الطريق .. وكما قالها الشيخ أحمد ياسين

(طريق ذات الشوكة) وهي العبارة التي رددها فيما بعد على سمع الدنيا عبد العزيز الرنتيسي وهو يعلنها صريحة مدوية (إن كتائب القسام ستصل إلى قلب الكيان) ...وها هي كتائب القسام في بيتك يا مريم .. في بيتك يا أم نضال لتنطلق منه إلى قلب الكيان .. كان البيت مفتوحًا لكل مطارد .. دق الباب .. اندفعت لترى من القادم ، تعرفهم بأسمائهم ثم برسومهم وملامحهم وتفاصيل التفاصيل من وجوههم وقاماتهم ؛ محمد الضيف .. محمد دخان ... أيمن مهنا مراسل عماد وسائقه .. يضمهم قلب أبي نضال وقلب أم نضال .. بلا ملاحقات ولا عيون ولا متجسس .. يتحدثون بتلقائية .. يتضاحكون .. يتمازحون .. يتناوشون بنوى التمر .. وببقايا الطعام .. يتبادلون الطرائف والمواعظ .. وعند الصلاة تراهم في خشوع وتبتل كأنهم في الصدر الأول من أصحاب النبي الأكرم – صلى الله عليه وسلم– ما هذا الدين العظيم ؟!!

لم ينس عماد ما حفظه في كيتسعوت من القرآن، فقد حفظ عشرين جزءًا ،وحفظ ما تبقى (هكذا كان يظن نضال) خارج السجن .. كان يقيم الليل بالجزء والجزئين والثلاثة والأربعة، ويرخي لمدامعه العنان ... مضت أحد عشر شهرًا على عماد وصحبه قبل أن يصل إليه إبليس الخئون اللئيم بصحبة جبان وضيع ، وفي لحظة يطيش فيها العقل يُؤمِّن الحَذِر لأحدهما أو لكليهما ، وقر في قلب أم نضال وأبنائها أن ساعة الرحيل قد أوشكت بالحلول ، فإبليس بالباب ومعه الخائن أبو رغال ، رفض عماد لقاءهما ، دخل نضال على عماد ليخبره بمجيء وليد وعبد الفتاح...

- أنت تعرف يا نضال أنني لا أقابل أحدًا ، سبق لي أن عرفته أو عرفني ، وقد لبيت طلبكم في أن اندمج مع ضيوفكم ، الذين لا يعرفونني ولا أعرفهم، أما هذان فلا ، وقبل

أن يغادره ،قال له ملاطفًا : لدينا عملية اليوم ، وأنا على موعد مع رائد الحلاق وجمال موسى ومحمد دخان ...

- أأخبر الوالدة ؟

- نعم ...

****

اجتمع الشباب مع أم نضال ، وأخذوا يقرأون آية الكرسي على كل رصاصة قبل أن يضعها في (المخزن) حتى تمت الخطوة الأولى ، وأما الثانية فقد انتصب الجميع للصلاة ، كانت هادئة خاشعة ، ذرفت لها الدموع ، وأم نضال من خلفهم ، والإمام – كالعادة – عماد .. لبس الشباب عدتهم ، وعانقوا بعضهم بعضًا .. وخرج نضال ورواد لاستكشاف الطريق، ولحق بهم وسام وحسام إلى طريق آخر ،أعطى حسام الإذن بالخروج .. خرج عماد وصحبه.. استقلوا السيارة (بيجو 504) التي يجلس خلف مقودها أيمن مهنا ... انخلع قلب أم نضال لخروجهم .. سجدت باكية ضارعة .. ومرت الساعات ثقيلة ثقيلة كما لو أن عقاربها قد أصابها الشلل الرعاش .. اندفعت نحو التلفاز والمذياع لا يتوقف .. وإذا بخبر تعلن فيه إذاعة العدو عن مقتل ثلاثة جنود ، وقد ترك (المخربون) بيانًا في المكان تعلن فيه كتائب القسام أنها هي منفذة العملية انتقامًا لمجازر الاحتلال متوعدة بالمزيد .. ابتهجت .. زغردت ... طارت فرحًا .. بكت .. توجهت إلى السماء .. لقد حقق الشباب الهدف .. ثم إنها هي التي كتبت البيان بعد أن تعودت بعض المجموعات المغمورة أن تتبنى أيَّ عملية ينفذها القسام .. إذن فليُكتب بيان .. يلقى للصهاينة في مسرح العملية وعند رؤوس القتلى، وقد كان رأيًا حكيمًا .. لاقى استحسانًا لدى عماد وصحبه دون تفكيرٍ أو تردد .. دق الباب

.. هي دقة عماد .. كادت أن تزغرد .. كان الصيد صعبًا ، والغنيمة عظيمة .. قتلوا ثلاثة .. وعادوا بسلاحهم ، وكاد عماد أن يرتكب حماقة لولا أن الله سلم ، فقد أصر على أن يفك الرشاش عيار (500) الرئيس من على مقدمة الجيب ويعود به .. وقد تذكر مقولة للبنا عندما سئل إلى أين أنتم ذاهبون ؟

- إلى قتال اليهود
- ليس معكم سلاح كسلاحهم ..
- فقال بثقة : نتقاسمه معهم .. فمن نقتله منهم بسلاحنا البدائي نغنم سلاحه المتطور .. وهكذا كان في مواقع عصلوج ، وكفار داروم ،وصور باهر قبل أكثر من أربعين سنة ...

أخيرًا نجح عماد في فك الرشاش رغم اقتراب صوت المروحيات ، وهدير الدبابات إلى المكان .. دخل عماد وصحبه، وامتلأ قلب أم نضال بعودتهم بالفرح، وصار البيت ساحة مهرجان نصر . دخلوا وقد كسا الطين ملابسهم، دخلوا وعلى وجوههم إشراقة إيمانية لا يخبو نورها .. كانت أم نضال قد طبخت سماقية .. وإلى جانبها طبق من الأفوكادو ، جلسوا جميعًا ، وأم نضال تروح وتجيء ، وتجلس حينًا ،وتتحرك أحيانًا . ولا تمد يدها نحو (الزاد) كانت الفرحة قد كسرت صمت أبي نضال العائد من عمله في بئر السبع . ما لكم تضحكون وتتمازحون على غير عادتكم؟

فأجابه نضال : قد نفذ الشباب عملية قبل ساعتين، قتلوا فيها ثلاثة جنود صهاينة وعادوا بأسلحتهم، حتى المدفع الرشاش ،جحظت عينا أبي نضال وهو يردد: باسم الله، الله أكبر .. واستخفه الطرب، أمر الجميع بترك الطعام وقد سبقهم إلى الوقوف .. وعانقهم .. قبل

رؤوسهم .. وأكتافهم ، ورفع عمادًا بين يديه .. أخذ يدور به في الغرفة ، ثم اغرورقت عيناه بالدموع في الوقت الذي يلهج لسانه بالحمد ..

- أأنت الذي فعلت ..؟

- لا بل الشباب .. وأنا معهم ، وكان الرمي بقوة الله .. وأما نحن فلا حول لنا ولا قوة ، وردد خاشعًا : وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى

***

جن جنون رابين . فأرسل كلابه البوليسية ووحدات أكثر تدريبًا وتسليحًا ، عاثوا في محيط العملية إفسادًا وظلمًا .. تعقبوا الأثر الذي سرعان ما انقطع .. فأخذ رابين يلعق عرق الهزيمة والخزي الممزوج بالمزيد من الغيظ والوعيد .

داهمت أم نضال موجة من الضحك ، بعد أن علمت أن رابين قد أعطى وعدًا لأبي عماد أن يعطيه مليون دولار على أن يخرج عماد إلى خارج البلاد آمنًا ، عرف فيها الجميع أنها تسخر من هذا السكير الأحمق ، بعد أن سمعت عماد يهزأ من العرض وصاحبه ، مجددًا العهد على المضي في الطريق حتى يتحقق له إحدى الحسنيين (النصر أو الشهادة) ..

***

خلت أم نضال إلى نفسها .. ما هذه الروح التي تسكن صدور هؤلاء الشباب .. رغم قلة ما في أيديهم من عتاد وسلاح .. ورغم وسيلتهم الوحيدة المهترئة التي تنقلهم من عملية إلى أخرى ، ومن مكان لآخر ؟!

لم يكن لدى عماد سوى حذاء قديم ممزق .. ثم يأبى أن تشتري له أم نضال آخر بدلًا عنه .. ورغم ورغم .. ما هذه الروح ؟؟!! تسأله : لا تريد أن أشتري لك من مال أبي نضال ؟إذن فلنشتر لك من مال (العمل) ؟ فيجيب بإصرار : هذا مال مقدس .. إنه مال الجهاد!!

***

تعددت العمليات .. وتساقط الصهاينة ؛قتلى ، وجرحى ، وازداد الشباب جرأة وإقدامًا ، وازدادت حنكتهم على التخطيط .. ولم تكن غائبة عن كل ذلك ، فلم يكن عماد يخفي عنها سرًا : يا خالتي . الليلة سننفذ عملية .. ويأخذ في سرد أدق التفاصيل على سمعها بلا لعثمة أو تردد ، تطلب إليه أن تحشو الرصاص في مخازنه، وقبل أن يجيب تناولتها ، وبأصابع مدربة أخذت تحشو الواحدة تلو الأخرى ، ولا تضع رصاصة إلا بعد أن تقرأ عليها سورة ياسين كاملة ، ولأن ساعة الصفر أوشكت ...أخذ نضال يعاونها في العمل .. مؤكدة عليه (لا تضع رصاصة إلا بعد أن تقرأ عليها سورة ياسين بتمامها ...) خرج الشباب وكالعادة انخلع لهم قلبها .. وسالت دموعها .. وشخصت ببصرها إلى السماء .. ولم يتوقف لسانها عن (وجعلنا من أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) .. كان خروجهم عند الفجر.. وفي الحلكة التي تسبق انبلاجه .. وقد اتخذوا منها ساترًا وحجابًا .. تقدمهم بالخروج عناصر الرصد ؛ نضال وأخوه محمد ، وقد أعدا له مكانًا آمنًا للانسحاب إليه عند إتمام العملية بنجاح ..

***

عاد الشباب في المساء .. واحتفل أبو نضال بهم كعادته .. يرفع عماد بين يديه وسط تهليل الشباب وضحكاتهم .. وبمشاركة لا تقل عن فرحهم، كانت خلف الأبواب المغلقة إيمان

وإنعام وإلهام وإيناس .. يتعانقن .. يصفقن بصمت .. يزغردن بصمت .. لا تتسع قلوبهن للفرحة المتدفقة إليها من كل ركن في البيت ، تدخل عليهن أمهن معانقة ومهللة .. ثم تهدأ طالبة إليهن الاستغفار والدعاء .. لم تكن فرحة الشقيقات بأقل من فرحة أمهن أو إخوانهن أو أبيهن . بل وأكثر ..

***

حالة من الانبهار سيطرت على أم نضال وأولادها وزوجها ، ليس لها اسم إلا (عماد عقل) هذا الشاب العابد الزاهد الذي لم يتجاوز العشرين من عمره إلا بعامين ، حالة جعلت الجميع يتفقده إذا صلى وإذا رقد وإذا نام وإذا قرأ، يتفقده إذا خرج، ويظل ينتظره بقلق واضطراب حتى يعود ، يرونه جزءًا من كيانهم .. هو القلب من الجسد ، والعين من الرأس ، هو الفكرة والحركة ...

***

(أم نضال والسجون)

انصهرت أم نضال في الانتفاضة ، وخاصة بعد أن عرف الصهاينة بيتها ، وتيقنوا من دورها وأبنائها فيها .. فعينوا من العيون من يلاحقونهم ، ليقوم الجيش بمداهمة المنزل ليعتقلوا من فيه ، ولم يكن أحد في مأمن من أن يكون عليه الدور ، ولهذا لم يجتمع الأشقاء على مائدة لسنوات ، يعتقل اثنان أو ثلاثة أو أربعة في آن واحد ، يقدمون للتحقيق والتعذيب... ليأخذوا أحكامًا .. يخرجون ليعودوا إلى السجن مرة وثانية وثالثة ، حتى أصبح حديث اعتقال (أولاد أم نضال) حديث الحارة والمدينة ، جاء اليهود إلى بيت أبي نضال .. خرجوا ..كسروا الأبواب . كلما سمع أحد الجيران بدقات عنيفة ، انصرف ذهنه إلى بيت أم نضال .. وإن هي إلا دقائق حتى يرتفع صوت أحدهم أو أكثر بالتكبير ، وأم نضال ترفع من همته وتحضه على الشجاعة والثبات .. يدفعها الجنود فتصب عليهم الدعوات صبًا ... متحدية .. هازئة منهم .. ومن رعونتهم وإجرامهم .. ولم يخطئ حدس الجيران .. حتى صار بيتها رمزًا للمقاومة والتحدي .. يأتي ابنها ليأخذ قسطًا من الراحة ، ليخرج على عجلٍ إن سمع صوت المكبرات بالتكبير، وهي من ورائه ، تمد الشباب بالعزيمة وتحرضهم على الهجوم والثبات .. حتى إذا وقع أحدهم جريحًا خفت لنجدته واسعافه... أليست نارسة (ممرضة)؟ أما تعلمت ذلك من الملازم مصطفى في حصص الفتوة، ومن الأبلة سوزان؟ ... وإذا ما عادت إلى بيتها داهمها الحزن والقلق .. حسام ووسام ومحمد اعتقلوا جميعًا الليلة .. مؤمن أصيب في

مواجهة اليوم .. زجاجة المولوتوف اشتعلت في جسد رواد .. نقلوا حسام إلى إيشل، ورواد إلى كيتسعوت .. تتزاحم أخبار المواجهات في رأسها .. لا تحدث فيه دوارًا إلا إذا انفردت بنفسها لتستسلم للبكاء ، وموجات الأحزان ... تهرب من أحزانها إلى تلاوة القرآن ، إلى الصلاة ، تسأل نفسها : ألسنا على حق ؟ .. إذن فلابد أن نضحي من أجل انتزاعه ، أليس اليهود على باطل ؟ .. وهاهم يقاتلون من أجل أن يجعلوا منه حقًا ، ولو بالإجرام ، يقتلون في سبيل ذلك .. يُجرحون .. كما أنهم يتألمون .. يجوعون .. يُطارَدون .. مثل أولادنا تمامًا .. بفارق أننا على الحق وهم على الباطل .. إذن فالأولى أن نستمر وإلا ضاعت حقوقنا .. نستمر ومهما كلفنا ذلك من مال ودماء وولد .. لنكنسهم من ديارنا .. تبتسم .. هكذا كانت تغني فتح (إن لم يضحِّ أنا وأنت فمن يضحي)

****

أبا نضال : غدًا زيارة حسام في كيتسعوت ، وقد سمح لي بزيارته ، أما أنت فلا ، قال بزفرة حارة .. حسبنا الله ونعم الوكيل .. لم تنم تلك الليلة .. اشترت له ملابس داخلية وبدلة رياضة زرقاء وحذاء رياضيًا ، وسويتر أزرق ووضعت صور أخوته وأخواته في مظروف ،وبعض الطعام في ملابسها ... خرجت بعد منتصف الليل في البرد القارس .. وصلت إلى مكتب الصليب الأحمر وكانت أول من وصل .. انتظرت حتى الفجر .. انتحت جانبًا .. صلت .. أخذ الزوار يتقاطرون .. علمت أن المسموح لهم بالزيارة خمس وعشرون عائلة .. ومن كل عائلة شخصان... إلا هي .. فقط هي .. من عائلتها دون غيرهم .. لا بأس .. جلست في الحافلة ، دارت عجلاتها قبيل الشروق .. وصلت إلى أول حاجز.. فالثاني .. فالثالث .. ثم إلى معبر بيت حانون .. مرت ساعات خمس ولم تنتقل الحافلة إلى الجانب

الآخر، ولم يسمح للأطفال بقضاء الحاجة ولا لمرضى السكر .. حمدت الله أن عافاها مما ابتلى به كثيرًا من خلقه .. صعد جندي .. جمع التصاريح وهبط .. عاد بعد ساعة ..أين مريم فرحات .. كاد ينخلع قلبها .. سمعت ضرباته .. تفصد عرقها .. قالت بصوت مرتجف : أيوه ، اقتادها إلى مكتب التحقيق الملحق بالمعبر.. فاجأها الضابط : مريم فرحات .. مريم فرحات .. أنت مخربة ؟!!! إذا أردت أن تزوري نضال فلابد أن نتعاون .. سادت دقائق صمت وكأنها الدهر ..

خرج صوتها قويًا هذه المرة : فيم نتعاون؟

- أنت عارفة .. وأنا عارف

-أنا مش عارفة، يعني ماذا ؟ اسمع لو أعدمتم أولادي جميعًا فلن يكون ما تريد .. هذه وقاحة ..

-بطخك .....!!!

- طخ ... قالتها بصوت مرتفع .

- لا أنا بأمزح .. ما تعرفي المزاح

- ثاني مرة أقول لك هذه وقاحة

- وطي صوتك

– لا لن أوطيه ، هذه وقاحة ...لم تكن المرأة هي التي تتكلم على لسان مريم ، بل كتيبة من القسام .. قادتهم .. شهداؤهم .. جرحاهم .. إيمانهم .. صلاتهم .. الحق الذي يؤمنون به .. الجنة .. النار ..

وكأنه رأى كل ذلك ،فأخرج تصريحها وقال : اركبي مع السلامة .. سلمي على نضال ..

- تمتمت .. الله لا يسلمك ، ولا يسلم جيشك ..

***

وصلت الحافلة بعد خمس ساعات أخرى وقد بلغ الإعياء منها مبلغًا كبيرًا ...انتظرت لساعتين في قلب العواصف والرياح الثلجية حتى جاء دورها لترى نضال بعد ستة أشهر من اعتقاله ، رأته ولم تستطع مصافحته أو تقبيله .. فالحاجز البلاستيكي السميك إلا من ثقوب كان فاصلًا عنيدًا حال بينها وبين فلذة كبدها ، فاحتضنته عيناها .. رسمت على وجهها ابتسامة وجعلتها جدار صد يحول دون تساقط دموعها ، وتربط على قلبها كيلا يطير، ثم يسكن في صدره إلى جانب قلبه .. تريد أن تحدثه عن كل شيء .. فما تحدثت عن شيء ، وتركت للسانها يسأل السؤال ذاته عشرات المرات .. كيف حالك ؟ .. صحتك ؟ ... ماذا تأكل ؟ ... وأفاقت على صوت كريه ناشز الترداد : يلا خلاص ، ثم جاء ليدفعها .. فما سمحت له .. انصرفت بهدوء مزمجر .. لتلحق بالركب الحزين إلى الحافلة .. التي عادت إلى حيث انطلقت بعد ساعة ونصف الساعة ، فلا حواجز ، ولا ضابط يدعوها – بوقاحة – للتعاون معه ، وصلت أم نضال بيتها في منتصف الليل .. وكان في انتظارها زوجها الذي احترق بنيران الانتظار ومزق قلبه القلق .. وإيمان وأخواتها ، وأما وسام وأخوته فلقد خرجوا ولم يعودوا بعد ،ووجدت وسامًا في انتظارها ..

(وســـام)

دخلت مرهقة ، بعد يوم شاق في رحلة العذاب المعهودة .. واستبد بها الإعياء والصداع ، الذي يلازمها بلا فراق ساعة من نهار أو ليل منذ أن كانت في سن المراهقة ، وكادت أن تصاحبه وتلاطفه ، إلا أنه لئيم وخبيث خبث العملاء وأسيادهم .. وزاد من إعيائها فشلها المتكرر أن تهذب ألسنة رفيقات الرحلة ، وتحد من ولعهن بالقيل والقال، والغيبة، والسخرية من خلق الله ، الامر الذي يضطرها في كل مرة إلى الفرار إلى العزلة الشعورية ، وإلى التسبيح والاستغفار ، والاستغراق في ترديد ما تحفظ من القرآن ، فضلًا عن المحاولات الفاشلة في أن تستدرج النوم، عساها تأخذ قسطًا منه بسبب الطرق المتلاحق على كل مكان من رأسها .. إنها شواكيش الصداع ...

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ؛ ومصافحة وعناق ، سألت وسامًا : مالك .. أخارج أنت ؟

- نعم ... وإلى تنفيذ عملية في الداخل !!فما رأيك ؟

- انتبهت حواسها وفقدت احساسها بالصداع والإعياء ، عملية ؟! وماذا عساي أقول ؟ لهذا اليوم أعددتكم وربيتكم ...

- سرت النشوة إلى كيانه ، وبدأ بحديث أشبه بالهمس : صدر أمر أن نقوم بعملية داخل الخط الأخضر ، ولقد تم الإعداد والاستعداد وانتظرت لوداعك .. ولقد تعينت المناطق والأفراد .. هي ست عمليات يا والدتي ، وقد سبقنا كمال كحيل إلى البادية ... استطرد رغم خفقان قلبه إشفاقًا عليها ، وقد توارت المجاهدة خلف الأم ، يعرف ذلك كل أبنائها من رَفَّات جفونها التي تتسارع كلما شعرت أن خطرًا ما يحدق بواحد منهم ....

- قال : كان من المفروض أن نخطف جنودًا ، لكن الأمر قد تغير .. إنها العمليات الاستشهادية .. أعددنا ستة أحزمة ناسفة .. واشترينا سيارة (جي أم سي) واستأجرنا بيتًا في الداخل ، وأعد كل ذلك الأخ عماد أبو رقيق البدوي الخبير والموثوق .. وهأنا على أهبة الرحيل .. أستودعك الله

- تجمدت أطرافها، ثم سرعان ما سرت إليها حرارة المقاتل ، تنحت الأم خلف ظهر المجاهدة : لا يمكن أن أثنيك .. اذهب .. كن شجاعًا .. أنت ذاهب إلى لقاء الله .. فإن أخلصت النية، فجنة عرضها السماوات والأرض ،وإني أعيذك من الثانية .. يا وسام؛ أنت تعلم أنني قادمة من رحلة رأيت فيها الذل والهوان .. زيارة أخيك .. لا بد أن يعلم هؤلاء المجرمون أننا لن نكسر ، رغم تعسفهم وهمجيتهم وقمعهم .. لن نرفع الراية البيضاء ، اذهب .. وفجأة؛ انفجرت باكية .. احتضنته بمجامع قوتها ، تريد أن تحتفظ به إلى الأبد .. ها هو يخرج بلا أمل في الرجوع ، هدأت قليلا ، وكأن صراعًا مريرًا قد احتدم بينها وبينها ،

- واستغل وسام هذا الهدوء ليقول : تعلمين يا والدتي أنني ذاهب إلى الجنة .. وابتسم وهو يداعب خدها .. ألا تحبين لي الجنة ؟

- قالت بعزيمة المجاهدة التي لا تفارقها إلا لتعود من فورها : اسمع يا ولدي أنت تعلم كم أحبك .. بل أنت أغلى الناس إلى قلبي .. أنت فلذة كبدي .. أطلت (الأم) برأسها لتتوارى فورًا .. لكن الله أغلى منك ، والدين أغلى منك ، وهو الذي أمر بهذا .. اذهب ، ولن نجزع ، ولن نبكي ، كن قوي العزم .. كن رجلًا واستعن بالله .. ثم ابتسمت وشدته من أذنه : إياك يا ولد ثم إياك أن تنسى أن تبلغ السلام لعماد وإبراهيم عاشور .. قل لهم : أمكم أم نضال تبلغكم السلام .. قالت ذلك ورمت نفسها على صدره .. وضمته بذراعيها .. ألقت رأسها على كتفه .. وأخذت تغرق أصابعها في شعره .. تشمه.. تقبله .. تريد أن تذوب فيه أو يذوب فيها .. تمنت أنها لا تزال حاملًا به ، وما ولدته إلا لحظتها ... عصفت بها مشاعرها .. أتبخل على ربها .. أتتناقض مع نفسها .. أترافقه ليستشهدا معًا .. وقررت أخيرًا أن تقطعه من قلبها أو تقطع قلبها ..ثم ابتعدت عنه ، لتعود .. ارتخت ذراعاها ... ثم ألقت بنفسها ثانية على كتفيه .. غمرتها موجة من الضحك الباكي ثم إلى ضحكات تتعالى ، كأنها دخلت في دوامة من الهستيريا .. ولتنفصل عنه مودعة بآخر قبلة على جبينه ثم أخذت تمطره بوابل من القبلات .. أجهش وسام في الضحك ، وأخذ يمشي ووجهه لها ، وهي تتقدم نحوه حتى خرج .. تاركًا قلبه لها ، ونهران من الدموع قد فاضا من عينيه الواسعتين .. وقد أمدته بعزيمة تخيل أنه بها يزيح الجبال .. قضت على ما بقي في نفسه من هواجس وتردد.. فمصيره أن يتحول إلى فتافيت من لحم إثر ضغطه على الصاعق .. شعور مبهم ينتاب الاستشهادي ، يدفعه للهروب من هذه اللحظة ، لرهبتها ، لكن ما استمده وسام من أمه كان أقوى .. ثبته... طرد الوساوس من صدره .. تعمقت في نفسه الثقة بأنه ليس مراءٍ ... بل مخلص .. جدد النية .. قنت قلبه .. استقل سيارة (جي أم سي) .. تسربت إلى

روحه رائحة الزنازين وقسوة السجان .. نحاها بعيدًا ، فلن يذهب ليسجن بل إلى الجنة ..دعا الله ألا تفشل عمليته ويفوز بالشهادة .. لا يريد العودة إلى السجن ... ولا إلى أن يتسبب لأمه بمزيد من العذاب في زيارته .. هي مريضة يا رب .. الصداع قد حطم عظام رأسها .. تموت في لحظة وهي ذاهبة لنضال .. يا رب انفذ مطلبي ... يا رب .. أفاق وسام من دعائه على اجتياز السيارة حاجز ايريز .. أصبح في الأرض المحتلة .. انزاح أول عائق يحول بينه وبين الشهادة ، لن تتعذب أمه بزيارته مرة أخرى .. عاد إلى دعائه ...تمنت يا رب أن تقدم شهيدًا في سبيلك من أبنائها .. أكرمني أن أكون هو ...

***

جلست تنتظر الخبر إلى جوار المذياع الذي تيبس مؤشره عند صوت إسرائيل ... جاءها الخبر صاعقًا .. أُلقي القبض على مخرب بحزام ناسف .. توجهت بالدعاء ألا يكون وسامًا .. كي ينال ما تمنى .. لكنه وسام .. حمدت الله على هذه الحال ... وأصابها دوار .. حرم من الشهادة هذه المرة .. وها هي عذابات جديدة للزيارة .. ولوعة الفراق .. ولوعات عذابات السجن وظلم السجان .. حكمتك يا رب ، والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه ...

***

اليوم محكمة وسام .. محكمة عسكرية ثلاثية ... ترأستها قاضية برتبة كولونيل .. طويلة مثل دودة الاسكارس ، رفيعة، وبأنف معقوف .. ودوائر النمش تنتشر في وجهها كالعدس المجروش ،وقد تناثرت قشورها في بقع متجاورة جعلت من وجهها منفرًا ، أخذت تستمع بانتباه للنيابة العسكرية التي أفاضت في (الجريمة) التي أعد هذا (المخرب) نفسه لارتكابها ضد اليهود .. وما يمثله ذلك من تطرف ، وعنصرية ومعاداة للسامية، وإن المنظمة

الإرهابية التي ينتمي إليها من أخطر المنظمات .. فضلًا عن أنه ينتمي إلى أسرة، كل أفرادها ينتمون لهذه المنظمة الإرهابية ، وأن المخرب المجرم عماد عقل الذي تمكنت وحدة (شمشون) من قتله بعد أن قتل من جنودنا سبعة عشر ضابطًا وجنديًا ..

غامت الدنيا في عيني وسام .. وأخيرًا نطقت القاضية بالحكم على غير ما توقع (114)شهرًا ..ورفعت الجلسة ، سمعت أم نضال بالخبر ، فلم تدر، أتفرح أم تحزن !! وظلت العذابات الثلاث تسوطها ، تسوط مشاعرها وقلبها وعقلها ....حرم من الشهادة ...عذابات السجانين والمحققين ...عذابات الزيارات ، وأضافت إليها رابعة .. سيقضي في السجن تسع سنوات ونصف السنة بلا جهاد .. بلا زواج ..بكت كما لم تبك في حياتها أبدًا .. وبين الحين والآخر تشاطرها أم حلمي التصبر مع البكاء ، إلا أروى التي لم تتوقف عن سرد المواعظ والرقائق والعبر...

***

لم تكتف النيابة العسكرية بالحكم ، فاستأنفت ،لتضيف ثمانية عشر شهرًا أخرى على وسام، الذي كان يقدر الحكم بعشرات السنين لا إحدى عشرة سنة ، فخر ساجدًا مرات ومرات ، كلما ربط بين هذا الحكم وبين لطف الله به، استجابة لدعوة أمه المجاهدة ....

***

(استشهاد عماد)

دخلت أم نضال بيتها بعد جولة على الجرحى وبيوت عزاء الشهداء قد كدها الإرهاق ، وحطمت رأسها شواكيش الصداع من جديد ...أين عماد ؟؟ سألت لتنتظر الجواب ، وإذا بالباب يدق .. إنه عماد .. جاء من غير الطريق التي اعتاد أن يأتي منها ، الشمس تودع النهار في دقائقه الأخيرة ، لتسقط في حضن بحر غزة ، التي تلونت سماؤها بلون الشفق ، وكأن دماء الشهداء قد تجمعت على صفحتها .. كانت الريح باردة في أواخر أيام الخريف .. وها هو الشتاء قادم قد سبقه هواؤه البارد ليعلن لأهل غزة بمقدم ذلك الضيف الذي يؤذي ببرودته الفقراء، الذين تزدحم بهم بيوت غزة وطرقاتها ، وخاصة معسكرات اللاجئين .. ويزداد الأذي إذا ما انهل المطر .. فتوحل الطرقات ، وتمتلئ البرك بالمياه التي لا تجد لها قنوات ولا مصارف ، فتقتحم البيوت والحجرات ، فيتراكض الصغار والكبار بملابسهم الخفيفة، حفاة الأقدام لينضحوا بأدلائهم المياه ..

دخل عماد .. تهلل وجه أم نضال وأبنائها .. وخف أبو نضال مرحبًا .. فسأله مؤمن بحسه الأمني : من أين أتيت؟

- من خلف البيارة

- هل الطريق آمن ؟

- في تقديري نعم ، ليس فيها ما يريب ...

- قال نضال : إن وليد منذ أن رآك أول مرة قبل أسبوع وهو دائم المجيء والسؤال عنك ، وقال: إن لديه معلومات وسلاحًا وأموالًا ..

- قال عماد : ليس لدي الوقت الكافي .. جئتكم شوقًا .. ولم يبق للغروب إلا نصف ساعة ، والشباب قد أعدوا طعام الإفطار ..

- إذن نتناول طعام الإفطار معًا .. ونكسب معك الأجر .. قبل أن يرد عماد تدخلت أم نضال لتحسم الأمر بيمين مغلظة ، فاحمر وجهه حياءً، وكعادته ابتسم ، وعاتب أم نضال على قسمها ، لتنهض إلى إعداد الطعام .. أخبر نضال عمادًا برغبة وليد بلقائه وإلحاحه على ذلك .. وسأل .. هل نرسل له محمدًا ليأتي به ؟ بعد تردد قال : لا بأس ..

****

هي دقائق جاء بعدها وليد لاهثًا ، صافح وليد عمادًا بعناق حار ومتكلف .. فأثار النفور لدى عماد ، صعد الشباب إلى السطح .. هنا يا عماد سنبني لك بيت الزوجية .. غرفة وحمامًا ومطبخًا، قالها نضال ، وأضاف: هذا تخطيط الوالدة !!ابتسم عماد وعلت وجهه حمرة الحياء ، وتمتم بكلمات فهم منها؛ إن شاء الله ، ولم يخبره أن والدته قد أسرت له أنها ستزوجه إحدى بناتها !!! ترك نضال ومؤمن ومحمد عمادًا ووليد ، ليتحدثا بما يحمل وليد لعماد من أخبار .. أذن للمغرب .. فنزلا .. ولم يدر أحد ماذا دار بينهما من حديث .. فجأة؛ ارتفعت أكف عماد بالضراعة .. اللهم ارزقني الشهادة في هذا المكان (وأشار إلى حيث

أخبره نضال أن الوالدة أمرت ببناء بيت الزوجية له فيه) واستدار إلى السفرة ، قام حسام بعد أن أنهى طعامه على عجل، وخرج إلى الشارع لكي يرصد الطرقات المؤدية إلى البيت، فقد تأتي دورية فجأة، أو أن يكون هناك بعض العملاء !!!

***

كادت أم نضال تطير فرحًا .. فمنذ أسبوع سبق لم تر عمادًا ... وهمست لزوجة نضال (والله يا بنتي لأول مرة أرى وجه عماد كالقنديل يشع نورًا كأنه قمر ساطع .. كالبدر في ليلة صيفية .. نَظَرت إليه وكأنه عريس أو أجمل) فقالت زوجة نضال : ما شاء الله عليه ..

****

همَّ عماد بالخروج، فأقسمت أم نضال على أن يتناول كوبًا من الشاي، فاعتراه الحياء بحمرته ، وفعلًا تناول الكوب، وعندما فرغ، تناولته من يده، ولم تشأ أن تضعه بين الأواني التي تزمع غسلها، لتحتفظ بالكأس التي زكتها أنفاسه .. تعجبت أم نضال لشعورها هذا .. فلقد شاركهم عماد السكنى لأحد عشر شهرًا خلت ، وما ساورها هذا الإحساس الذي يغمرها هذه الليلة .. أيكون ذلك هي فراسة المؤمن الذي يرى بنور الله؟ حاولت أم نضال أن تهرب من هاجس بدأ يتسلل إلى قلبها ، أتكون هذه آخر شربة لعماد من هذه الكأس ؟!! أجاب قلبها فورًا : لا ... لا ... لا سمح الله ..

- سألته : لماذا أنت صائم ، وليس اليوم هو إثنين أو خميس؟!

- فأجاب بابتسامته المعهودة : هي كفارة يا والدتي ..

****

تقف حافلة على جانب الطريق، رأى فيها حسام ثلاثة من الشباب ، تكسو وجوههم لحىً خفيفة على بشرة سمراء هادئة .. هذا سمت شباب القسام .. قالها في نفسه .. تقدم نحوهم .. طرح السلام .. لم يجبه أحد .. أعادها مرة وأخرى ، و لكنهم ظلوا على صمتهم .. أيقن أنهم من كتائب القسام، وأنهم مرافقو عماد .. مر على ذهنه خاطر بأنهم من جاؤوا ليصطحبوا عمادًا .. اطمأن قلبه .. فجأة؛ اندفع الثلاثة .. وفتحت الأبواب الجانبية كأنها أبواب جهنم .. انقض عليه من نزل منها .. عشرة أو أكثر .. بأيديهم مدافعهم الرشاشة ، بل وبكامل أسلحتهم .. طرحوه أرضًا .. قبلها بثوان أراد أن يكسر صمتهم ويطمئنهم على عماد ، فألمح لهم بذلك .. سيطروا عليه بعد أمر عسكري صارم (انزلوا) فانشقت عنهم السيارة كما لو كانوا شياطين في أيديهم إم 16 .. يعرفه حسام جيدًا ، ففي أيدي المطاردين أكثر من قطعة من هذا السلاح .. غنموها من الجنود، الذين نجح المجاهدون بقيادة عماد في قتلهم .. كانت تكسو وجوه الشياطين خطوط بألوان متعددة .. إذن هم المستعربون من القوات الخاصة .. جالت عينا حسام في المكان، فرأت سيارات عديدة موزعة في المكان .. تلك سيارة مرسيدس مشغول صاحبها في إصلاح إطارها، وثانية وثالثة ورابعة وخامسة .. تقل شبابًا ، ومتوقفة لأعطال مختلفة .. سمع حسام صرخة القائد ، فانتشر مَن كان في السيارات في كل مكان ؛ في المنعطفات .. على أسطح المنازل .. على الأبواب .. يتراكضون بسرعة وأيديهم على الزناد ... وأصوات الأقسام تقرع آذان حسام ....

– إذن هي النهاية يا عماد .. أراد أن يصرخ كي ينبهه، لكن صوته ضاع في زحام الأصوات، بل لم يخرج من حنجرته ...

سمع حسام هتاف الجند (شمشون)... (شمشون) فأدرك أنها الوحدة الخاصة بالاغتيالات .. والتي أعدها (جيش الدفاع) على أعلى درجات الاستعداد والتدريب ، وزودها بأحدث ما

في ترسانته من أسلحة وأجهزة اتصال وتصوير .. كانوا عشرة بل مائة أو ألفًا ، هكذا تخيلهم حسام بينما هو ملقىً على الأرض، ومن حوله أفراد منهم ،وقد صوبوا فوهات بنادقهم نحو رأسه ، كان صوت الكولونيل مائير مينز هادرًا ومرعبًا : حاصروا المكان .. انصبوا الحواجز .. اعتلوا الأسطح .. ليقف كل فرد أمام باب البيت المخصص له ، لم يكونوا بلباسهم العسكري .. بل بلباس فلسطيني وسيارات فلسطينية .. كانوا متحفزين للهجوم عند سماع أي إشارة .. تبين لحسام أنهم يعرفون كل زقاق وكل نافذة وكل باب وكل شجرة .. وكأنهم من سكان الحي الفضوليين .. ثم انشقت الأرض عن أرتال من سيارات الجيش المصفحة والجيبات .. هدير .. وأصوات تتعالى ترطن العبرية ، لم يعد في المكان ما يسمع إلا أصواتهم ،ولا حركة إلا حركتهم ، ولا ضربة إلا ضربات أقدامهم .. تفتح أبواب الدبابات ،وحاملات الجند ، والمجنزرات، كما لو كانت أبواب جهنم .. (ياه أكل هذا لاغتيالك يا عماد) قالها حسام بصوت مكتوم لا يكاد يسمعه أحد .. لكن من الذي وشى به، ودل كل هؤلاء الخنازير البرية عليه ؟؟... ثم سرح: ترى ماذا ستقول تلك الزيتونة التي طالما جلس عماد تحت ظلالها ؟!! إنها الشهادة يا بطل .. هنيئًا لك .. سرح مرة أخرى .. هناك هدير يأتي من الجهات الأربع وكأن بيته قد أصبح مركزًا لدائرة قطرها ألف متر ..

****

أحدث كل ذلك إرباكًا في المنزل واضطرابًا فيمن فيه ؛ أم نضال ، محمد ، مؤمن ، إلهام ، إيناس ، عماد ....يسمعون ضربات قلوبهم .. زاغت عيونهم .. قفزت قلوبهم إلى خارج صدورهم .. وقف عماد ثابتًا، قد شع وجهه بمزيد من النور .. أشهر مسدسه .. استغرق في ورده ودعائه .. حلقت روحه في أجواء المكان تودعه .. كسته سكينة وطمأنينة .. مسدسه

مصوب نحو صدر عدوه الساكن في عقله ... توشك أن تنطلق رصاصاته لتخترق الحصار .. أم نضال تحاول أن تخبئه بين جفونها ، لا بل في سويداء قلبها .. الكل يجري في المكان الضيق عله يجد مكانًا ليس فيه جنود .. قد نسيه هذا المينز .. ماذا تريد أن تفعل يا عماد؟ ماذا تريد أن تفعل يا عماد؟ سأل نضال بلهفة .. فأجاب عماد بهدوء .. يبدو أن هذا حصار محكم من حولي .. الجيش يتقدم .. يضيق المكان أكثر .. ها هم على بعد عشر خطوات .. صعد عماد الجدار المؤدي إلى الخارج .. مسدسه لا يزال ينتظر ضغطة من أصبعه لتنطلق الرصاصات .. عيون أم نضال تجري كما فرس السباق .. توشك أن تقفز على حاجز فآخر، وعلى متنها عماد ، بل في قلبها ، لكنها توقفت فجأة تخاطبه : يا ابني إن كانت هذه شهادة في سبيل الله فلتكن .. إنها شيء كبير ، وإياك أن تتراجع عنها .. إنها أغلى ما تتمنى .... قال عماد : كنت أتمنى أن يكون معي سلاحي الرشاش وأقاوم .. لكنني سأقاوم بمسدسي .. سأقاوم بإذن الله ، وأسأله أن يرزقني الشهادة مقبلًا غير مدبر ... سأقاوم .. أعطوني سجادة لأصلي ركعتين .. قفزت إحدى البنات بلهفة وعيناها تنضحان بالدموع .. أشهر بيمينه مسدسه .. دخل في الصلاة .. وهدير الدبابات يعلو ويعلو .. والأصوات تدنو .. الله أكبر .. سمع الله لمن حمده .. استشعر معناها بأصفى شعور .. سمع الله لمن حمده .. رب إنني أحمدك فاسمع دعائي وأجب، اللهم ارزقني الشهادة ، أفاض نور من وجهه على قلب كل من حوله ، لم تفكر أم نضال – قط – بالخطر المحدق بها وبأولادها ، فقط، بما يحدق بعماد ..نسيت أن وليد يجلس هناك بلا اضطراب أو قلق .. لم تلتفت إلى (ساعته) التي تحيط بمعصمه .. إنها غريبة ولم يلتفت إليها عماد كذلك .. لم تلتفت إلى نظراته الزائغة منذ أن دخل البيت في لهفة .. كان الجميع مطمئنًا فكلامه معسول معسول .. وله ذكرى وذكريات..بدأ الرصاص ينهال على المنزل .. حاول الجميع أن يأخذ ساترًا .. صكت

النساء أبواب منازلهن ... أخذ الجيران يتوجهون إلى الله بالدعاء .. الأطفال يصرخون بفزع .. أصوات المآذن .. صوت الرصاص يتلاحق .. يميز حسام – الملقى أرضًا – بين رصاصة وأخرى .. أصوات قنابل ورشاشات إم 16 ، بيكسيه ، عوزي كلاشنكوف .. جرينوف .. ولم يرف لوليد جفن .. يجلس بهدوء . غارق في كرسيه كأنه يقود المعركة من مكان آمن .. ازداد ركض الجميع في المكان ، ركض بلا هدف .. كالفراش المبثوث .. تتلاطم الأجساد ، تزيغ الأبصار .. والنار تقترب .. من أشعلها ؟ ... من جمع الحطب ؟... من جمع هؤلاء الشياطين ؟....هذا يوم عرسك يا عماد !! أليست للصائم دعوة لا ترد .. لقد طلبت الشهادة في هذا المكان وأنت صائم .. إذن فلتهنأ .. خاطر مر بقلب أم نضال .. اندفع عماد إلى السطح .. اندفع الجميع من ورائه إلا الضيف الثقيل المتزن المطمئن .. التف الجميع من حول عماد ليكونوا جدار صد .. ليحموه من الغول .. من أنياب الذئاب ... من النيران .. وفي قرارة أنفسهم ليودعوه الوداع الأخير بعد أن أدركوا أنها اللحظات الأخيرة ...لن أستسلم قالها بإصرار، تعقيبا على ما قاله نضال : إياك أن تسلم نفسك ... طلب عماد من مؤمن أن يلقي نظرة على الطريق من أعلى السور .. فتسلل في حذر شديد .. ليعود إليه قائلًا : الجيش محيط بكل زاوية، ويقف عند كل شبر يا عماد .. نظر عماد إلى الزاوية التي أعدتها أم نضال له لتبنى فيها له بيت الزوجية .. وها هو يقف فيها عريسًا .. الكل ينظر إليه بلهفة وحب جارف .. طلب إليهم أن يتوجهوا إلى الله بالدعاء أن يرزقه الشهادة .. استغفر .. هلل .. كبر ..تجرأ نضال .. عماد اشفع لنا عند الله .. وسلم على رسول الله وعلى الصحابة يا عماد .. قالت أم نضال : أنت شجاع .. أنت بطل .. هنيئًا لك يا عماد . إنها الشهادة يا عماد .. إنها سلعة الله .. إنها الجنة .. ثبتك الله يا ولدي .. لم يعد هنا عماد ... ذهب إلى عالم آخر .. روحه هناك .. جسده المتوثب هنا فحسب ..

هناك روحه حيث لا يعلم إلا باريها .. ازدادت قبضته إمساكًا بمسدسه .. اطمأن على أن الرصاص يوشك على الانطلاق دون توقف .. نطق الشهادتين .. ألح على ربه أن يرزقه الشهادة .. احمرت وجنتاه بالحياء .. بللهما عرق كحبات البرد .. ثم وثب .. وسمعه الجميع يقول : أستودعكم الله .. هي وثبة الجندي من القدس إلى يافا، لكنها في الخارطة لم تكتمل ، لكن وثبة عماد قد اكتملت يا مريم .. وثب من المكان الذي أعدته أم نضال ليكون بيت الفرح لعماد .. صرخته كانت مدوية .. الله أكبر ... الله أكبر ...الله أكبر... ردد الجميع نفس الهتاف السماوي .. وكأنهم كانوا صدىً لصوته .. أطلق الرصاصة الأولى مع التكبيرة الأولى ثم الثانية فالثالثة .. قفز ليهبط على صدره لا على قدميه .. استقبلته فوهات البنادق .. والرشاشات .. والبيكيسيه ..والعوزي ... لم تفارق روحه جسده بعد .. انتفض .. ركض والرصاص يلاحقه .. أصاب رأسه تفجر مخه في الهواء .. عشر رصاصات عشرون ثلاثون سبعون .. صار جسده كالغربال .. تطايرت أشلاء جسده .. فتافيت من اللحم .. شظايا من العظم .. التصقت في الجدران .. حطت على أغصان الزيتونة التي ظللته ساعات وساعات . وها هو يرويها بدمه .. وابتهج مئير مينز .. قتل عماد الأسطورة .. بعد أن قتل عماد منهم أكثر من سبعة عشر مئير مينز .. هتفوا .. رقصوا .. شمشون .. شمشون .. رددوا نشيدهم الوطني هاتيكفا .. وانطلقت مزاميرهم .. باركهم حاخاماتهم .. أبواق السيارات تجوب شوارع تل ابيب .. ديزنجوف .. نهاريا .. توقف بث التلفزيون فجأة ليعلن نبأ مقتل عماد عقل بكل اللغات التي يتحدث بها هؤلاء المجرمون ، والتي تعكس حقيقتهم .. إنهم شذاذ .. لمم .. حثالة .. وشربوا الأنخاب .. وتعلن الكنيست بهجتها ومباركتها بمقتل عماد .. كانت سيارة البث التلفزيوني بالقرب من منزل أم نضال .. تبث حركة عماد ومن حوله بثًا حيًا ...من وراء الكاميرا ؟ .. ويتلقى أوامر المخرج حركة حركة ..

وانفعالًا انفعالًا.. ؟ غرق حسام في دوامة لا نهاية لها (هناك ستة أشخاص داخل البيت) سمعها حسام صريحة بلغة عبرية واضحة كان قد تعلمها أثناء عمله في مصنع الخياطة في (رحوفوت) من أين لهذه الشاشات ومكبرات الصوت والمعدات وأجهزة الصوت بكل التفاصيل من داخل المنزل ؟ من أين ؟ لم تكن قدرته على التحليل لتسعفه بالجواب ، خاصة وأنها موزعة بين رصد ما يسمع وما يرى ، وبين التفكير في عماد وقتله الذي أصبح أمرًا حتميًا .. (بيش شيش أناشيم فبخاوراه بفنيم) تكررت مرارًا (يوجد ستة أشخاص وامرأة داخل المنزل) تأكد حسام من وجود سيارة البث ، والتجسس بعد أن رفع رأسه في مغامرة قد يكون نتيجتها أن يفجر أحدهم رأسه برصاص رشاشه المصوب نحو رأسه ..

***

مرت ساعة.. أخذ قائدهم ينادي بمكبر الصوت . على كبير العائلة أن يخرج .. خرجت أم نضال كفرس سقط من على ظهرها فارسها .. فواصلت الانطلاق لتثأر له من قاتليه ..صرخت .. لعنت .. صبت على رؤوسهم الدعاء بالهلاك ..تكرر النداء .. ليخرج كبير العائلة .. أجابت بتحد .. أبو نضال ليس هنا يا مجرمون .. خرج نضال غير مبال برصاصة تضع حدًا لحياته ليلحق بعماد وهكذا تمنى .. أمروه أن يحمل ما بقي من جسد عماد المثقب وينقله إلى الزيتونة .. حمله .. اغتسل بدمه الدافئ الفوار الذي كان يتدفق من قلب سكنته الثورة والمقاومة ، رغم أنه لم يعش إلا اثنتين وعشرين سنة، هي كل عمر عماد

***

ما إن وضع نضال جسد عماد عن كاهله حتى انهال الجيش عليه بالرصاص .. ليفرغوا ما في قلوبهم من حقد عليه .. ولم يدركوا أن كل رصاصة كانت شهادة على بطولة عماد، على

فروسيته وشجاعته .. وكأنما كانوا يريدون أن يتأكدوا بأنه قد فارق الحياة حقيقةً لا وهمًا أو خيالًا .. فالرعب منه قد سكن قلوبهم واستقر .. وكأنهم يطلقون الرصاص على ذلك الرعب .. بحثًا عن أمن وأمان من عماد...

***

أفاق الجميع من ذهولهم أن عماد قد قتل .. حارت أم نضال أن تطلق الزغاريد فرحًا لزفافه – القائم الآن – بالحور العين .. أم تبكي ذلك الفارس الذي ترجل قبل أن يطهر القدس وغزة والجليل .. جلست وقد تجمدت دموعها ... لم يعد في عينيها من دموع ..كيانها ... قلبها ... فؤادها .. نظراتها .. كل ذلك يلهث وراء عماد .. لم تكن تسمع هدير الدبابات وهي تنسحب من المكان، ولم تكن تسمع أجهزة اللاسلكي وهي تعلن عن مقتل عماد في محيط منزلها .. لا .. إن روحها التي تسمع كل ذلك، لم تعد – بعد – من حفل زفاف عماد ... لم يخطر على بالها لحظةً أن تتفقد أولادها .. لم تسأل أين حسام أو وسام أو محمد أو مؤمن .. أين إيناس وأين إلهام .. ؟ أين زوجة نضال .. لا لم يخطر على بالها إلا أن تردد : لم يجبن عماد!!لم يتردد .. وثب وثبة ذلك الجندي من القدس إلى يافا .. شريط طويل ..مر أمام ناظريها ... أبو أحمد مهنا .. العم أبو خليل .. الشيخ زكريا .. العدوان الثلاثي ...نشيد الله أكبر .. الفتوة .. شقيقها أسعد .. الشيخ يعقوب .. الشيخ أحمد ياسين ..عايدة سعد .. همست : كم أنت رائع يا أحمد ياسين .. فقد ربيت جيلًا من أمثال عماد .. انسابت دموعها بلا توقف .. بصمت .. لم تعد تقوى على النهوض والحركة .. غرقت في أحزانها .. أخذت تلوم نفسها .. لماذا أصررت على أن يتناول طعام الإفطار ؟ لماذا لم تستجيبي لطلبه أن يذهب ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ ارتفع صوتها بالبكاء .. أصبح نحيبًا .. جاءها محمد ومؤمن .. أرادا أن ينهضاها؛ فأبت .. أصرت على البكاء .. صوتها يعلو

.. ويعلو يا رب .. يا رب ارحمني وارحم عمادًا .. اسكنه في عليين .. اقبله في الشهداء .. آآآه .. ضربت صدرها بقبضتيها .. أجهش الشابان بالبكاء .. قال مؤمن :كفاية .. حرام يا أمي حرام .. ما هكذا تعلمنا منك ...فلقد تعلمنا منك الشجاعة والثبات والرجولة .. لولاك ما كنا رجالًا .. أنت التي تشحنين قلوبنا بالعزيمة والثبات والإقدام .. كفاية .. كفاية .. أومأ لأخيه .. فحملاها إلى سريرها علها تنام ،ولكن النوم – أيضًا – تأبى عليها .. ذهب عماد .. ذهب عماد، زفرت وكأنها تعاني سكرات الموت .. شرقت بدموعها .. دخلت جاراتها ..جاءت صديقاتها .. جاءت أم حلمي.. جاءت إيمان .. وكأنهن قد التحفن بأثواب الحداد .. وعلى مثل عماد تبكي البواكي ..

****

أسبوع مضى على ذهاب عماد .. لن يدق الباب مرة أخرى بدقته المعهودة .. ولن يجلس تحت الزيتونة .. لن ترى ابتسامته التي تقطر حياءً .. لم يعد هناك عماد الذي ترهب وثبته الصهاينة، ويرتعد لذكره الجواسيس .. آآآه .. لم يرقأ لأم نضال جفن .. ولم يجف لها دمع .. بيتها أصبح مزارًا للمعزين والمعزيات ، ومنطلقًا لمسيرات الغضب تنادي بالثأر .. أسبوع مضى وجسد عماد الشهيد المثقب بين أيديهم ، يحتجزونه ...كم هم مجرمون .. وكم هم ظلمة .. لكن لا بأس فلقد أصاب منهم ثلاثة أو أربعة .. لا بل أصابهم جميعًا قبل أن يتمكنوا من قتله ..وإلا فلماذا جاء جيش بالكامل ، وبكامل عدته وعتاده ؟ لماذا هذه الأرتال من الآليات والمدافع والدبابات والجيبات ؟ لولا أنه كان يمثل جيشًا بمفرده .. إذن لماذا تخلو جيوش العرب من أمثال عماد ؟؟

أسبوع مضى حتى يصدر الصهاينة أمرًا لوالده الشيخ وأخوته أن يواروا جثته التراب الذي أحب، على أن يكون ذلك في الهزيع الأخير من الليل ،وألا يصحبه إلا أربعة رجال !!كم هم أغبياء

وحمقى !! لقد صار عماد رمزًا لهذا الوطن .. صار بندقية .. صار شجرة زيتون ... صار فكرة .. وحركة وانقلابًا .

****

هدأت خواطر أم نضال وامتلأت رضًا وتسليمًا ، افتقدت (مؤمنًا) قال حسام : ذهب لزيارة عماد !!خفق قلبها فجأة ، وانصرف ذهنها إلى بعيد .. تمنت أنه على قيد الحياة ، وأن ما جرى كان حُلمًا ثقيلًا .. ابتسمت لهذا الخاطر ، ولكنها سرعان ما هزت برأسها وكأنها تطرده، لا تريد أن يُخرِج عمادًا من الجنة ويأتي به إلى الدنيا .. بعد ساعة دخل مؤمن .. أخذ برأسها بين يديه وقبله .. كنت عند عماد .. جاء جيب يقل أربعة من كبار الضباط ..ناداني أحدهم وسألني عن قبر عماد ؟ أشرت إليه .. ترجل الاربعة ، وتوزعوا على زوايا القبر .. وقفوا وقفة عسكرية (انتباه) أدوا التحية العسكرية (تعظيم سلام) وانصرفوا !!شعرت بقشعريرة تسري في بدنها ، وأخذ قلبها يرقص طربًا، هي نفس الرقصة التي رقصها يوم أن تزوج نضال، وتزوجت إيمان .. اندفعت الرقصة إلى شفتيها وصارت ضحكة، ثم إلى عينيها فانسكبت دموعًا لا حابس لها ... نعم إنه يستحق .. إنه بطل هكذا قال المحقق لنضال ..نعم لقد قَتَلَنا بسلاحنا .. لم يجبن أبدًا ..إنه بطل .. كان يتحدث ضابط الشاباك لنضال ...

- ثم أردف : أأنت أحد جنوده ...؟

- نضال : لا...

- المحقق : لقد قتلناه في بيتكم ...

- نضال : كان هاربًا منكم ولاذ إلى بيتنا فجأة .. هز برأسه ساخرًا ..إنه يعلم الحقيقة .. لقد أخبره بها ذلك الحقير .. توهم نضال للحظة أن المحقق قد صدقه .. فتركه .. لكن من عرف الصهاينة وخبثهم أدرك أنهم لا يتركون فريستهم وإن كانت بريئة إلا لغرض أخبث .. وهكذا كان .. لقد تركوهم ليعيشوا في وهم تصديقهم لروايتهم كيلا يتطرق إليهم شك في جاسوسية ذلك الحقير ، ثم يصطادوهم جميعًا عندما يأتي إليهم عماد جديد...

***

(مائير مينز .....مرة أخرى)

هستيريا من الفرحة اجتاحت الكيان الصهيوني ،وبلغت وحدة شمشون ذروتها ،وأصبح قائدها كالطاووس... حفلات التكريم، و الترقيات .....تتلاحق، والنجم مائير مينز ،الصحافة جعلت منه بطلًا قوميًا ،وتتزاحم دعوات الجامعات و المدارس لاستضافته ... وعلى طريقة الجيش كان يضع قبعته على كتفه وقد امتلأ غرورًا و صلفًا ،أغرته بالمزيد من الملاحقات ،وقد اطمأن إلى عينه الخائبة التي اخترقت – كما توهم–القسام ،نعم لقد اصطاد صيدًا ثمينًا ..اصطاد عمادًا ؟؟مما دفع إخوانه أن ينظموا له جنازة تحدٍ .....شارك فيها مئات الآلاف في كل أنحاء مدن القطاع ،وقراه ،كلها تنادي بصوت واحد :الانتقام الانتقام يا كتائب القسام..

من بين دموعه الحارقة أقسم محمد الضيف ،أقسم أحمد الجعبري..وابنها حسام ..رائد سعد ..عوض سلمي ..رائد العطار ..محمد السنوار ..وضعوا أيديهم بعضها فوق بعض وعلى كتاب الله ؛أن ينتقموا ..أرسلت لهم أم نضال طلبًا كأنه أمر عسكري ..لا ينجو قاتل عماد من انتقامكم ،ولا ينجوا من وشي به ، وإلا سأتولي ذلك بنفسي ..كانت الرسالة حرقة لأكباد الشباب ،قرأوا فيها :لستم رجالًا إن لم تثأروا لعماد،فاتركوا الأمر للنساء..فالرجولة موقف وسألزم نفسي به ..بللت رسالتها بدموعها ..بكوا بمرارة وأرسلوا لها ما يطمئنها ..حرصت على إفراد مجموعة فدائية تتعاهد على الموت في سبيل الله لتنفيذ ما عاهدوا الله عليه من الثأر لعماد ،ولو استشهدوا الواحد إثر الواحد ،وإذا ما استشهد أحدهم ،حل محله آخر حتى يحققوا الغاية ...لم تعد الرسائل مجدية

..جاءها أحمد الجعبري بصحبة حسام ليعرض عليها عزم الشباب ،و أن المجموعة يقودها عوض ..وأضاف :أقسمنا على أن نقتل مئير بسلاح عماد ..سلمنا عوض سلاح عماد (مدفعه الرشاش)شعرت بالسكينة ..تسللت فرحة لقلبها..تمنت أن تعيش لترى تلك اللحظة ..فلقد ازدادت قسوة شواكيش الصداع ،ولم تعد سيقانها بقادرة على حملها ..لم تتحدث كثيرًا ،إلا بعض كلمات ختمتها بابتسامة خفيفة ، فيها تحد واستنهاض للهمة والنخوة ...(أطلقناك يا سبع) ،كانت الكلمة أشبه بسوط لسع مشاعر أحمد ..تفاعلت الكلمات مع مشاعره فأحدثت غليانًا في قلبه ..تمنى أن يتحول إلى بركان يتفجر في كل زاوية فيها مينز ..فيها كل جاسوس في هذا الكيان المجرم الخبيث ..

***

نقل إلى المجموعة ما لاقى من أم نضال ..فانطلقوا وهم يعلمون أن مهمتهم تكاد تكون مستحيلة فمينز قائد لأقوى وحدة اغتيالات صهيونية لها امداداتها ،وإمكانياتها ،أفرادها كالشياطين، و عيونهم مركبة كعيون الذباب ،يتمتعون بصلاحيات لا حدود لها ؛من قتل أي مشتبه به ،اقتحام أي موقع ،يستبيحون أي حرمة ، من ورائهم لفيف من العملاء أحقرهم شأنًا هذا (الوليد)..يتحركون بسرية حتى عن كبار جنرالاتهم، أو رئيس حكومتهم، أو دولتهم ..بسيارات لا يخترقها الرصاص، حتى الخارق الحارق ،لكن براكين الغضب التي تكاد تتفجر في صدور القساميين هي فرس الرهان ..فانطلقوا ..يجب أن يشرب مينز من ذات الكأس ،يجب قطع رأس الطاووس ،يجب ألا تطول الفرحة في صدور هؤلاء المجرمين ..كان الأمر واضحًا ..انطلقوا ولكم كل ما يلزم ..ستحاسبون على كل إخفاق ..جددوا القسم ..طلب عوض أن يذهب لأم نضال كي يستمد منها الروح فتنعش روحه ،فأذن له قائده ..وجد عندها أم عماد و أباه..قبل

رأسيهما ،ولم يفصح عن مهمته التى أوكلت له ،و اكتفى بكلمات تعمد أن تكون كما لو خرجت من فمٍ من لا علاقة له بالقسام ولا برجاله ،جلس وفي عينه دمعة متجمدة ،لاذ بالصمت ،و اكتفت أم نضال بالترحيب ، و تقديم كوب الشاي .. و بكلمة خفيفة (شد حيلك ياولدي)عرف فيه أمرًا صارمًا ،لا يحتمل التأجيل أو التسويف ..فهم منها (قم عن هذا المجلس لتعمل)ولا يستقر لك جنب.. و لا تفتر لك همة ..انطلق عوض و قد تلبسته روح عماد و وثبته ، وقدرته على التخطيط و التخفي و المفاجأة .. تلبسته روح القائد الجندي عماد الذي يتقدم قبل أن يأمر ... ولا يرى أن هناك مستحيلًا .. أبدًا .. ولكن كيف يكون الوصول !! لا بد من عملية رصد دقيقة .. وفريق لا يقل عن عشرة شباب يحملون أرواحهم بين شفاههم ، أو على رموشهم .. فكلمة عبر هاتف أو لاسلكي قد تكلف صاحبها حياته ، وتكلف أهله التشرد والضياع ، والتمزق ما بين قتيل ومبعد وأسير ، طرفة عين تودي بصاحبها وراء الوراء .. ولكنه عماد .. فيهون للثأر من قاتليه كل عزيز .. مئات السيارات ذات اللوحات الصفراء ، والزجاج المعتم ، تجرى على مداخل غزة ، منها وإليها ، ولايدري أحد أين يكون ذاك المائير ، فضلًا عن أن سرعتها خاطفة كما لو كانت البرق ، هذا إلى جانب أنها لا يخترقها الرصاص، إلا إن تفجرها عبوات ناسفة... لكنه عماد .. نحى عوض المستحيل وأخذ يعزي نفسه بالتفاؤل في الممكن ، ولماذا الإرهاق؟ .. فإلى اصطياد الدوري حتى يصل إلى البوم ... لذا خرج بحثًا عن الدوري الذي يعود إلى أعشاشه عند الأصيل ،حيث يحمر قرص الشمس خجلًا من هزيمته أمام زحوف المساء .. ثم يتهيأ للسقوط الأزلي في مياه البحر ، بعد أن تلتقي السماء بالبحر وراء الأفق .. خرج عوض وسعد العرابيد دون حذر أو ترقب .. وقد أخفى كل واحد منهما مدفعه الرشاش تحت معطفه في نهار تزداد برودته كلما أسرعت الشمس في هروبها من زحف الليلة الشاتية المظلمة .. همس عوض : سعد تلك السيارة مسرعة ، لا شك أنها صهيونية تنهب الطريق إلى الشمال ، رد سعد : فعلًا .

وتحركت يده فورًا ليفك أمان الرشاش ، ويتهيأ للضغط على الزناد ..لابد للسائق أن يخفف من سرعته ، فلقد وصل منعطفًا يتجه يمينًا، ثم إلى جباليا من السودانية (شمال غزة) بمحاذاة بحرها ، بدا على الشابين الهدوء ، فلم يلفتا نظر من في السيارة ، رغم أنهما كانا في أعلى هيئات التحفز ، تأكدا من (صهيونية) السيارة ، وبحركة خاطفة أمطروها بوابل من الرصاص في ضغطة واحدة ، هكذا كان يفعل عماد... هكذا كان يتموضع ، هكذا كان يثب ... كان لا ينتظر أن ينطق بكلمة، فهي في عمر الهجوم دهر ... فالساعة هي الصفر .. ارتبك السائق .. أخذت سيارته تسير في خط حلزوني ، حتى ارتطمت وانفتحت أبوابها فجأة لتبعثر من فيها .. كانوا ثلاثة .. هول المفاجأة أذهلهم عن التفكير .. كانت قذائف اللهب تندفع من فوهتي بركانين ؛ عشرة ، عشرون ، ثلاثون ، سبعون رصاصة .. هكذا تمنى عوض ... كانت رصاصاته مصوبة نحو رؤوس الخنازير الثلاثة ، ورصاصات سعد إلى قلوبهم ، اضرب يا سعد .. اضرب يا عوض .. لن يسكت مدفعك يا عماد .. سيحرق القلب الذي حرق قلوبنا عليك .. تأكدوا من أن الدوري قد قطعت رأسه رصاصات عوض ورصاصات سعد .. تقدما .. غنما سلاحهم والأجهزة .. أضرما النار في السيارة .. وانسحبا بهدوء أمام ذهول بعض الفتية الذين كانوا في المكان .. رجعا وهما يظنان أن الصيد دوري فعلًا، لا غيار أو صيدح (ذكر البوم) .. ماذا سيقولان لأم نضال وقد مضى على فراق عماد شهر بالتمام والكمال ، لم يغمض لها فؤاد إلا لمامًا، ولو جمعت ما انسكب من مقلتيها لملأ كأس عماد مرات ومرات ..

***

ومن ذات الطريق الذي جاء منه عماد في ليلته الأخيرة .. ومن باب منزل أم نضال الخلفي ، مرورًا بالزيتونة التي أظلته ساعات وساعات ، ثم قدر لها أن تستقبل قطعًا قد تطايرت من جسده

.. وعلى نفس الخطى .. وبنفس الدقة المعهودة لعماد دق عوض الباب .. خفت لاستقباله بحركتها المعهوددة .. أهلًا يا بني .. كيف حالك يا عماد ؟ رمشت عيناها .. بعد أن استدركت .. أهلًا يا عوض .. أهلًا يا سعد .. تفضلًا .. أطلت برأسها من خلفهما ،عساها ترى عمادًا ، تذكرت أهزوجة جدتها :

طلت البارودة والسبع ما طل

لكنها عدلت عنها إلى أنشودتها الأثيرة :

يا يمة في دقة ع بابنا يا يمة هاي دقة احبابنا

يا يمة هي دقة قوية يا يمة دقة فدائية

وقد حولتها أم نضال يا يمة دقة قسامية

كم أحبت هذا النشيد .. وكم دندت بها كلما سمعت دقة عماد وصحبه .. لكنها ضنت بصوتها عليه ، ولكن تشدو بها أمام أولادها ، بعد أن يرحل ضيوفها الغوالي (كما كانت تقول)

***

دخل عوض وسعد وأخبراها .. وها هو سلاحهم يا أمي .. بحركة لا إرادية أخذت مدفع عماد وقبلته .. لا تزال فوهته ساخنة .. قد سرت فيها حرارة الحياة .. ومنه تدفقت نبضات قلب عماد رصاصًا ليقتل قاتليه .. دخل وسام مسرعًا .. فوجد عوض .. ألا تدرون . لقد قتل شباب القسام مائير مينز واثنين من ضباطه على شاطئ بحر غزة ، وفي منطقة السودانية .. قبل ساعة.. هكذا أعلن راديو العدو .. صرخ الثلاثة .. الله أكبر .. انخرطت أم نضال في البكاء . وسجد الشابان ... ثم أخذا يقبلان رشاش عماد.. شهر بين استشهاد عماد وهلاك قاتله .. أفاقت أم

نضال .. وعاودتها رقصة قلبها .. أخذت تضحك .. تقوم ثم تقعد . لا تدري ماذا تفعل .. تريد أن تزغرد . تريد أن تذيع الخبر على سمع الدنيا وبصرها .. لقد أشفى الله صدري قبل أن أموت .. توجهت إلى السماء .. نظرت إلى الأرض .. انتحت جانبا .. سجدت ... بكت .. ضحكت .. فتحت المذياع ..فعلى رأس كل نصف ساعة نشرة .. استمعت بكل حواسها وكيانها .. هلك مائير مينز قائد وحدة شمشون .. رأتهم بعين خيالها منكسي الرؤوس .. انطفأت فرحتهم بمقتل عماد .. اسود وجه حاخامهم الأكبر .. ملأ الرعب صدورهم .. وأنشبت الحيرة مخالبها في عقولهم .. أخذوا يتخبطون .. يستذكرون أمنية رابين في أن يفيق ذات صباح فيرى غزة وقد ابتلعها البحر .. ولكن أين وليد ؟!!

***

وسأل عوض بزفرة حارقة ... أين وليد ؟!!

(استشهاد محمد)

خمس سنوات متتالية، تذوقت أم نضال فيها الإرهاق ألوانًا ؛ فمن سجن إلى سجن .. ومن نقطة تفتيش إلى أخرى .. وجوه قبيحة .. وانتظار .. برد .. شتاء .. حر .. غبار .. ثرثرة .. كلها سياط تلهب قلبها مع كل زيارة .. إضافة إلى هذا الساكن الظالم الذي يضرب رأسها بشواكيشه صباح مساء .. لكن بقي يا وسام ست سنوات ، وهي ما تبقى من سنوات سجنك الإحدى عشرة ، لن يتدخل الشاباك بمنعها من زيارة أبنائها .. وخاصة وسام بعد استشهاد عماد في بيتها ، ولكن لم ينقطع التواصل عبر الأجهزة الخلوية .. يتصل نضال بوسام .. لا تقطع اتصالاتك أخي رحمة بالوالدة . ثم يبتسم . وسام، قد أُستشهد في أي لحظة .. لا تحرمني أخي من سماع صوتك حتى قبيل الاستشهاد بلحظة .. لم ينس وسام أنه وحسامًا ونضالًا قد جمعهم سجن واحد، بل زنزانة واحدة .. إنه سجن عسقلان ذي الشهرة المدوية .. فالمحققون جلادون غلاظ الأكباد .. ولا يرسل إليه إلا القادة .. جاءت أم نضال .. خرج حسام ونضال إلا وسام ، وكان نضال قد حكم لثلاث سنوات ، سرعان ما انقضت ، وبقي وسام ...

****

لم تنقطع الاتصالات بين المعتقلين من أبناء أم نضال من جانب ، وبينها وباقي أولادها من جانب ... الكل ينتظر بلهفة تقبيل الجهاز الذي يأتي عبره صوت وسام .. تبدأ بالسؤال عن عزيمته .. عن صلاته ... عن أوراده .. عن دعوته .. تذكره بأن رضاها مقترن بكل ذلك... ها

يا وسام إياك يا ولدي ...لا تنس رسالتك .. لا تجرح مشاعر أحد..كن للجميع أخًا وسندا .. ثم تقبل الجهاز مودعة : مع ألف سلامة يا حبيبي ..نفس الكلمات التي تعودت أن تقولها لأسعد (العفريت) يا حبيبي يا خويه ...تعطي الجهاز لنضال الذي يعيد أسئلة والدته ، وبنفس الإحساس ؛ ثم : أخي وسام .. نريد أن نخطب لمحمد ..فهو على نية زواج ... يفهم وسام الخبر على غير ظاهره .. إذن فمحمد يزمع على القيام بعملية استشهادية .. جاشت مشاعر شتى في رأسه .. يبدو أن محمدًا سيفوز بما لم أفز به .. أرجو أن ينال محمد الشهادة .. انتبه على صوت نضال عبر الجهاز يحثه على الكلام ..

- قال وسام : يا راجل !! ماذا تقول ؟!!

–قال : هي كذلك ...

غامت الدنيا في عيني وسام .. ومر الشريط، ولكن في هذه المرة لم ير إلا صورة أمه .. ماذا ستقول ؟ وماذا ستفعل؟ وهل أخبروها ؟! هل هي صاحبة الرأي ؟!! ...

–ووجد نفسه يسأل : هل العروسة جميلة ؟ وهل محمد على قدر المسئولية؟ وهل الوالدة هي التي اختارتها ؟

- جاءت جميع الإجابات بـ(نعم)

- وهل وافق أهل العروس ؟ أتذكر يا نضال يوم أن خطبت لي الوالدة أنا وأنت ، ولكن لم تتم ، وعادت الوالدة كسيفة البال ؟

- أذكر ذلك جيدًا .. ولكن الأمر مع محمد يختلف ، إذن اسمح لي أن أكلمه وأبارك له ...

***

خرج محمد الآن يا وسام ، ادع له بالتوفيق .. سجد وسام وأخذت دقات قلبه تعلو وتعلو .. لم يطق صدره أن يخزن هذا السر . فلا بد من صدر آخر .. أخي استمع للأخبار وأنا سأدخل في الصلاة ..

لا تزال دقات قلبه تعلو ..وأخذ العرق يتصبب من كل مسام في بدنه ...أصبحت يداه كمن غسلهما للتو من نهر يتدفق .. قدماه .. جبينه ...تصاعدت أنفاسه .. أخذ يلح على الله بالدعاء أن ينال محمد ما تمنى ، إن كانت ذات أصل وجمال ...ليكمل بها نصف دينه .. دعاء تتقطع له نياط القلوب .. خشع .. بكى .. احتدم الصراع داخله ..أين أم نضال؟ .. ابتسم .. قطب .. يريد الحياة لأخيه ..ولا يريد له السجن .. أما وقد خرج ؛ فالحياة الأبدية .. الخلود في الجنة .. رب أكتبها له واجعله من الفائزين ....ما أسوأ الاعتقال يا محمد .. سيحرمك – لا سمح الله – من الجهاد ،وقتل هؤلاء المجرمين ، سيعذب والدتنا .. وسيؤخرك عن اللحاق بمحمد وصحبه ... نحن في سنوات شداد يا محمد وراء القضبان .. ومرة أخرى غامت الدنيا أمام ناظريه .. سكون مطبق .. صديقه يستمع للأخبار ، دون أن يكون في ذهنه خبر بعينه ينتظره .. سجد .. وغاب عمن حوله .. وفجأة ضج صراخ من كل الزنازين المحيطة .. عملية .. نجح مخرب في الوصول إلى قلب غوش قطيف، لم يعد يسمع المذياع .. ضجيج يعلو ، وصيحات التكبير.. أصاخ السمع .. فقد خشوعه .. قطع صلاته ... خمسة قتلى من الصهاينة . واثنا عشر جريحًا .. لقد أثخنت يا بطل .. الحمد لله .. سمع من وراء الأقفال والأشواك ، والأسوار زغرودة أم نضال .. لقد زفت ابنها على أجمل عروس ... أجمعت الإذاعات على أن منفذ العملية هو محمد فتحي فرحات ، توجه إليه أحد

المجاهدين .. ألك أخ اسمه محمد .. وكان عناق ودموع ... رآى ابتسامتها .. ودموعها .. رآها ساجدة شكرًا .. ورآها باكية حزنًا .. رآها تستقبل المهنئين .. وتستقبل المعزين .. هي طريق ذات الشوكة يا ولدي ...تذكر وسام ذلك الجندي الذي طالما حدثتهم عنه .. هنا أيضًا اكتملت وثبته .. فإذا تتالت الوثبات من مجاهديك يا فلسطين فلا بد أن يتحقق النصر ....

***

لابد أن يكون محمد قد خطط جيدًا وأخلص نيته ، وعقد العزم ... يمر بخاطر حسام ذلك الحديث الذي تبادله مع محمد بصمته وحواسه ، مع (مجاهد) كان حول مغتصبة في خانيونس عجت بالجنود ، على غير العادة ... فلو كانت عملية !!!

****

دخل نضال .. وخرج يحمل في صدره الخبر بكل تفاصيله .. خرج إلى صلاح شحادة ، ووائل نصار ، وأطرق صلاح .. إنه صيد ثمين .. وفي غوش قطيف !!! ابتسم كعادته .. توقفت جفون وائل .. إنها مجمع عتصمونا يا أبا مصطفى ..

وليكن .. وأعلم أن نخبة جيش الاحتلال من ضباط ، وسلاح مهندسين ، وطيران .. وأعلم أنهم من المتدينين يا وائل .. صيد ثمين .. وسهل .. لدينا أربعة من مجاهدينا قد أكملوا تدريبهم .. قال وائل .. فأطرق صلاح مرة ثانية .. ليكن محمد فرحات . ومحمد حلس ..

ابتسم وائل .. توأمان .. وبروح واحدة . لكن محمد فرحات رقيق المظهر يا أبا مصطفى ..

لا .. إنه هو .. ألا ترى إلحاحه وشجاعته وعزمه ..

غلب رأي وائل .. سمعت أم نضال بالخبر... أغرقتها سحابة من حزن .. أرسلت برسالة للشيخ صلاح تستحلفه .. طمأنها .. بدراسة الأمر مرة أخرى .. ألحت .. وعدها .. وزف إليها الخبر .. سنرسل محمدًا وحده دون توأمه .. علم محمد .. طار فرحًا .. أخذ يغتسل بصلاته وتلاوته وتهجده مما علق بجسده أو روحه من غبار الحياة ..

***

أسبوع يا محمد وتفارقنا .. قالت وهي تبكي وتحتضنه .. لم تفارقه لحظة من لحظات تواجده في البيت .. تنام إلى جواره .. لا يغمض لها جفن ، ولا يهدأ لها قلب ...

- مريم : حبيبي يا ولدي لا تذهب ...

- أم نضال : لا تطعها ؛ بل فاذهب .. تشدك إلى الدنيا وأنا أدفعك إلى الجنة ..

- مريم : حملتك .. ربيتك .. سهرت الليالي ...

- أم نضال : نعم ؛ ولكن ليفوز بالنعيم المقيم ..

أسبوع مر على رأسها وقلبها وكيانها ،دكها دكًا .. سحقها ... صراع بين الأم والمجاهدة .. لتنحسم بنصر مؤزر لأم نضال ..

زفر محمد بعتاب ... لماذا تبكين ...؟

أنا أم يا محمد ، فلا غرابة أن أبكي ، فلا تهتم ولكن امض يا ولدي ، ولا تنظر خلفك أبدًا ، لا تلو على شيء ، لا تشغل عقلك أو فكرك بي ، ولا بأخوتك أو أخواتك ... لا تشغل بالك

بحطام الدنيا ...ولا ... ولا .... وأجهشت في بكاء لا يكاد ينتهي .. حتى ظن أن عظام صدرها قد تكسرت ..

- أشفق عليها محمد .. ما رأيك أن يذهب محمد حلس ، لأنني إن ذهبت دونه وبقي على قيد الحياة سيموت كمدًا ..

- انتفضت : ماذا تقول ؟ ليس هناك إيثار في الشهادة ، لقد اختارك قادتك وأعدوا العدة .. وأرجو أن يكون ذلك اختيارًا ربانيًا ....

- وفجأة جاء الرنين .. سألته: من ؟

- قال : ساعة الصفر ،

- سجدت فورًا ، وقد غمرتها سعادة لا حد لها ثم البكاء ... هذا الرفيق ثقيل الظل ..

- أراد أن يسري عنها ...أمي لقد رأيت رؤيا .. بشرتني الحور العين .. ستكون بجوارنا يا محمد بعد ساعتين .. وعلمت أنك ستلحقين بي بعد عشر سنين ..

- ضحكت .. وقالت له : هي رؤياي يا محمد ، أتذكر ما قصصته عليك منذ سنوات .. رأيتك مرابطًا في الأقصى ممسكًا بأسواره ، وسمعت هاتفًا من السماء (ألقه في اليم ولا تخافي) سمعتها مرات .. وصحوت من نومي وأنا أرددها ..

أمسك بيدها يقبلها ... ويقبل رأسها .. ووجنتيها ..

***

تلقت خبر استشهاد محمد ، قالت لكل من حولها .. ولأبنائها ، لبناتها ... لقد حقق الله لي رؤياي كما حقق لمحمد رؤياه ..

***

أكل هؤلاء جاؤوا لشهود زفافك يا محمد ..آلاف ..عشرات الآلاف .. رجال ونساء وصبيان وصبايا ... يا حبيبي .. ثم التفتت إلى نضال ، قبل لحظة التنفيذ وقد فرغت من وداع محمد، كما فرغت أخواته من ذلك ... خذ أخاك إلى هناك .. لا تتركه حتى تطمئن أنه قد أخترق كيانهم .. وسأنتظرك .. لا تجبن أبدًا .. وكانت ساعة الصفر .. منتصف الليل .. وهي ساهرة تنظر إلى النجوم ...عاد نضال .. قبلته كما لم تقبله من قبل ... وابتسمت .. نصفها لك والنصف الآخر لمحمد ، ثم سألته : هل أوصيته بالسلام على عماد.... وعلى إبراهيم ؟ ثم أخذت دموعها تتقاطر على خديها اللتين لم يفارقهما الابتسام .. لم يتوقف سيل المهنئين ، وأخذت بعض النسوة يتهامسن : ألا ترين أنها تلبس ثوبًا مطرزًا ؟ لقد كلفت ابنتها إيمان بشرائه، إنها في حفل زفاف !! ألا ترين أنها اختارت مكان قبر ولدها قبل أن يستشهد ؟ ألا ترين ابتساماتها ..؟ كن يشعرن بالغيرة .. لا .. بالاستهجان ...لا .. فلقد عرفنها منذ شبابها الأول ، يوم أن كانت قائدة لكتيبة الفتوة .. بل من قبل .. يوم أن كانت عيناها تتسمران أما الجندي الواثب من القدس إلى يافا.. ويوم أن قادت خديجة وسارة لزيارة عمها أبي خليل الجريح الذي فقد ساقه .. نعم هكذا كانت .. وهكذا هي .. ولم يعلمن ما كانت تقاسي من قلق .. هل قبل الله منها؟ هل رضي عنها ...؟ ولم يخرجها من قلقها إلا صوت صلاح شحادة ووائل نصار مهنئين .. متفائلين بقبول الله لمحمد ، ولتضحيتها بفلذة كبدها ... وقال ممازحًا : ألم يلبسك محمد (العصابة) الخضراء المكتوب عليها (لا إله إلا الله)

؟ ألم يتصور عند الزيتونة التي شهدت شهادة عماد ، وكانت تظلله من قبل ؟ وضحك صلاح .. أنت قوية يا أم نضال ... لقد رأتك الدنيا وأنت تودعين محمدًا قبيل خروجه للجنة .. لقد أذاعت ذلك فضائية أبو ظبي !! فابتسمت بهدوء دامع، وقلب قد ملأته السكينة ،مرددة ، خاصة بعد أن أهداها صلاح سلاحه محمد الذي اشتراه من حر ماله ، وتركه بعد أن زوده القسام بمدفع رشاش أشد مضاءً ولهبًا قائلًا : هي جنان يا أم نضال ،إن شاء الله...

****

خلدت أم نضال إلى ربها مناجية : رب استجبت دعائي ، فوفق الله محمد ،ولم يعد جريحًا أو أسيرًا كما دعوتك ، رب تقبله في الشهداء ، وأنت تعلم – حبيبي – أنني عقدت العزم على أن أرسله شهيدًا !! سمعها نضال فبكى .. فبكت لبكائه : يا ولدي أشعر براحة وطمأنينة ، لقد انتقم لي محمد من غاصبي أرضنا ، ممن أذلونا ، وضربوكم أمام ناظري بينما قلبي يتفطر عليكم حسرةً وألمًا ، وقد قتلوا عمادًا .. أتذكر يا نضال يوم أمليت عليك رسالتي إلى ذلك العزيز على قلبي معزتكم يا ولدي ، هل تعلم من هو ، ابتسمت وقالت : هو الشيخ صلاح شحادة ، وقد رجوته أن يكلف محمدًا بتنفيذ عملية !! قالت ذلك واختنقت بدموعها ، لم تستهجن منار ذلك ، فهي حماتها وتعرف مدى صلابة المجاهدة التي تسكن قلبها .. تبكي شوقًا .. وتجدد العزم مجاهدة .. حتى وهي تشاهد فيلم (نسمة وإعصار) الذي يعرض عملية محمد واستشهاده ..

***

تعلم منار أن حماتها تذوب حنانًا وشوقًا لأولادها .. رقيقة ... سخية .. لم تعرف منها الجحود ولا القسوة ... لم تضرب أحدًا منهم ، وإن أخطأ فعتابها عتاب المحب الوديع ،

كانت عاطفتها جياشة ، وعندما تمسك بالبندقية تصير بركانا.. لا تعرف الخضوع لنداء الأم التي تفيض حنانًا وحبًا وشوقًا لأولادها وللناس .. كل الناس !!

****

(حارة أم نضال)

وقع المحظور .. ها هم جاؤوا ليجتاحوا حارة أم نضال .. بعد أن حاصروها .. أصدروا أوامرهم بنسف البيت ..

- صرخ قائدهم بحقد أعمى : بعد ربع ساعة سننسف البيت .. تهيأ الجيران لزلزال يضرب بيت أم نضال وما حوله .. كان أمرًا حتميًا ..

- إذن فلنزرعه متفجرات .. هكذا قال نضال، وأردف : وليبق فيه اثنان من الاستشهاديين ..

- فانبرى حسام ..:. أنا أحدهم .. سمعت أم نضال .. رقص قلبها !! هو الثاني يا رب .. اقبله شفيعًا لنا يوم أن نلقاك .. لا وقت للدموع .. الأمر بسيط يا أم نضال حفرة بباب المنزل .. يكمن فيها حسام وزميله بالمتفجرات .. فإذا دخل الخنازير إلى المنزل تفجر فيهم البركان ..

***

تقدمت الدبابات .. تراجع الضابط عن الاجتياح لمعلومات وصلته تنذر بالكمين .. تراجع خمسين مترًا .. البيت مفخخ ..

- يعلو صوت حسام : يا أمي وصلت الدبابات .. وهذا آخر عهدي بالدنيا معك ...

- أم نضال : أثبت ولا تجبن ...

- جن جنون شقيقها : ماذا تفعلين ؟ لقد أضعت أولادك واحدًا فآخر ..لم يكن ردها إلا نظرة استهجان واستنكار ..

- قالت له بنظراتها المتحفزة : أأصابك جنون ؟ هذا يا أخي هو الجهاد، هذا هو الاستشهاد .. ودوت مدافع الدبابات .. قذيفة .. ثنتان .. سبعة ..

- أيرضيك هذا لقد صار بيتك دمارًا ، ولم تسددي – بعد – ما عليه من ديون ..

- أقرضته لله يا أخي ..

- دارت الدنيا في رأسه .. لم يدرك حقيقة ما تعيش ..

****

انسحب الجيش ... وابتعد هدير الدبابات .. مئات من البشر ، بل آلاف ، توجهوا إلى بيت أم نضال .. يخرج حسام وزميله من تحت الركام كالأشباح ... غبار يكسوهم ، ولا يبدو من وجوههم إلا بريق عيونهم .. هلل الآلاف فرحًا وسعادةً ...حسام ... إبراهيم .. نسي الجميع ما حل بالبيت من دمار .. وغرقوا في سعادة نجاة حسام ، وإبراهيم .. اندفع أبو محمد ليحتضن شقيقته مهنئًا وفخورًا .. فألقت برأسها على صدره وغرقت في البكاء .. لم تقو ساقاها على حملها ..قعدت .. جاءها حسام .. رفعها بين ذراعيه المفتولتين .. غابا في موجة من السعادة الباكية .. رأت فيه محمدًا وعمادًا .. وإبراهيم عاشور ، رأت فيه الجندي الواثب من القدس إلى يافا ... التفتت إلى نضال .. تعانقا .. لا تزال المخازن العشرون في

جيوبها على جسده ..600 طلقة يا حسام .. ضحك نضال .. هأنتم قد ادخرتموها ليوم آخر مع هؤلاء الخنازير .. أخذ أخاه في حضنه .. ثم أخذ إبراهيم .. عناق حار .. إنها لحظات النصر .. قال مازحًا : هل ودعت إبراهيم ؟ ها يا إبراهيم هل كان حسام منضبطًا ؟ رد إبراهيم مازحًا : ضاعت منا فرصة لقاء الحور العين ، وقد كان يفصلنا عنهن دقيقتان .. دقيقتان فحسب ، لعن الله هؤلاء المجرمين... حتى هذه حرمونا منها ... واجتاحتهم موجة من الضحك ...

- حدثني ماذا صنعتم ؟

- أبدًا ، لقد غمرتنا سحابة كثيفة من الغبار عند أول قذيفة دبابة .. لم نعد نرى شيئًا .. لقد كان الغبار يملأ الغرفة إثر كل قذيفة .. عندما انسحب الجيش ، أصابت إبراهيم موجة من (الهبل) فأخذ يعدو خلفهم .. ولحسن حظه لم يطلق سلاحه رصاصة واحدة ، بعد أن امتلأت ماسورته بالغبار والحصى ، فأخذ يعدو ، كسر باب الجيران .. غسل سلاحه بالماء ... أخذ يطلق النار . ولكن بعد أن ذهب الخنازير .. كانت أم نضال تستمع إلى الحديث بشوق وفرحة .. تريد أن تضم حسامًا وتقبله في كل مكان من رأسه .. وتقبل يديه .. وسلاحه .. تنفض عنه الغبار .. لكنها تمالكت .. وكأنها تعتب عليه .. لم تقم بالدور يا حسام ، ولكن خيرة الله خير ، فقال غامزًا بدور نضال .. اعتبي على القائد يا ستي .. فنهرته ببهجة .. تأدب يا ولد مع قائدك .. فوقف وقفة انتباه .. وأدى التحية العسكرية ضاحكًا :حاضر يا أفندي ....

****

(**وذهب نضال أيضاً ، ذهب الحصان الجموح** ...)

كانت جالسة تتحدث مع زوار شبكة التواصل ،وبهدوئها المعهود ، أخذت تجيب على أسئلة المشاركين ، كان شريكها في الندوة عبد العزيز الرنتيسي .. ما أهدافكم ؟ ما خططكم ؟ ماذا تصنعون مع أجهزة الأمن ؟ كيف ستتعاملون مع تداعيات أوسلو ..؟ ماذا يعني لكم اعتراف م. ت . ف بإسرائيل ...؟ كيف تطيقين استشهاد أولادك ..؟ أأنت قاسية...؟ هل لك عاطفة الأم ...؟ إجاباتها كانت مختصرة .. ومحددة .. وواضحة ... الله أمرنا بهذا .. نعم أنا أم وأحب أولادي .. لكنني أحب لهم أسمى الدرجات... ولن يكون هناك أسمى من الجنة .. ولهذا أعددتهم .. وأبكي بحرقة على فراق أحدهم .. وأقلق حال غيابه .. رن الهاتف فجأة .. رفع كل منهما هاتفه .. انسحب عبد العزيز .. بقيت هي!!! لماذا تنسحب ؟ لأنني ما خلقت لهذا ، بل هي أم نضال !! أم نضال : ألم تسمعي أن انفجارًا قد حدث ، أصاب نضالًا وخمسة من مجاهدين من زملائه ؟ !! نعم استمعت ، ولكنني أريد أن أكمل معكم... وأقول لكم : إنني أشعر بسعادة غامرة أن حقق الله لنضال ما أحب .. (الشهادة) وتمنى ذلك .. ثم خرجت بهدوء .. قلبها يقفز إلى صدرها ، ولكنها سيطرت على خطواتها .. تبكي بصمت .. وبلا جزع ..دخلت مشفى القدس .. أين نضال ؟.. أفسحت لها جموع الشباب .. هوى أحدهم ليقبل الأرض من تحت قدميها .. ابتسمت .. ارفع رأسك .. كن رجلًا يا ولدي .. إنما الصبر من الصدمة الأولى ... موجة عاتية من النحيب .. أجهش الجميع .. ذهلت

... أكل هؤلاء يحبونك يا نضال .. تحركت من داخلها الأم .. سالت مدامعها .. توقفت عند سريره... هو في الرمق الأخير .. كان هو الذي يتولى علاج العبوة ... وإحكام الصاعق .. تحرك أصبعه في المكان الخطأ ..دوى الانفجار .. وذهب نضال، أو كما كان يطلق على نفسه (الحصان الجموح) التفتت إلى أبي زكريا الجمال .. وأيمن كباجة .. هيا لا يقعدكما الحزن .. أكملوا المشوار .. الحمد لله أن بيض صاحبكم وجهي عند ربي .. دارت يمينا؛ من هذا ؟

- إنه سلامة حماد يا والدتي ..

- ماذا به ؟

- أصابت جسده مائة وعشرون شظية ..

- رفعت رأسها إلى السماء : اللهم اشفه شفاء لا يغادر سقمًا .. سيكون بخير إن شاء الله .. وسيواصل الطريق ..

ارتفع الصوت بالنحيب .. الكل يجهش .. انتقلت إلى عيونها العدوى .. بكت بصمت .. أخذت تفرك بيديها .. لم تعد ترى الأشياء مستقرة من حولها .. أصيبت بدوار .. أدرك حسام حال أمه .. احتضنها .. أقعدها .. فتحوا النوافذ على هواء بحر غزة ليطرد الدوار .. عادت إلى واقعها .. قبلت نضالًا .. وانسحبت بهدوء .. لقت انتباهها أختها فاطمة .. ابتسمت ..

- مبارك عليك حجك ..

ارتفعت عقيرة فاطمة بالبكاء

– صرخت: نضال ... لم أودعه .. همست لها .. أذكري الله .. هو شهيد ..

– هذا ما طلبه يا حبيبتي ..

– ليتك لم تعطني المال لأحج عنك .. ليتني ظللت هنا لأودع نضالًا ..

– حضرت إيمان على عجل .. يا حبيبي يا أخويا .. نهرتها بعينيها !!!

– سألها أحد الإعلاميين عن نضال؟

– كان قائدا لوحدة الصواريخ ، وكان يصنعها .. نعم متزوج وله ثلاث بنات وولد ...نعم طاردته السلطة بعيونها ومخبريها كما طارده الاحتلال ... نعم لم ينثن، ولم يتراجع ....نعم .... نعم ... نعم ...

لم تعد تعرف إلا نعم .. إجابة عن كل أسئلته حول مباركتها لعمله ..

***

صوت من بعيد يولول ..

- اهدئي يا حبيبتي .. اهدئي يا عطاف ..

بكت عطاف ابن شقيقتها بحرقة حارقة .. نار تحرق قلبها... التفتت إلى أم نضال ..

- كان أخاك الصغير وكان أخي ، وكان صديقك وصديقي .. كان غاليًا وعزيزًا ..

- حبيبي (صرخت)، ضربت صدرها ورأسها بيديها ...

- نهرتها ... أتلطمين يا عطاف؟؟ .. استغفري الله ..

- يا ما يا حبيبي أولاده صغار ..

- الله لهم .. يا عطاف .. ولد الرسول وليس له أب ، وماتت امه وهو ابن ست ..

****

تحرك الموكب الحزين .. واستسلمت للبكاء .. سلم على محمد يا نضال .. سلم على النبي .. سلم على الشهداء .. تذكرت أن بين استشهاد محمد واستشهاد نضال سنة بالتمام والكمال ، وإن زادت لستة أيام .. وعجبت لهذا الخاطر .. كيف صبرت ؟ لتجيب عن سؤالها فورًا .. إنه الله ....

***

أيـــن ولـــيد ؟

سؤال له تردد كالرعد في رأس أم نضال !! كان إصرار مينز على خروجه من بيتها ، بعد نجاح مهمته قد أثار اهتمام كل من في البيت ، ليخرج الرجل الملتحي .. لم يتوقف عن النداء .. رغم خروج أم نضال وثورتها ... أبو نضال ليس هنا يا مجرمون .. النداء هو النداء .. بينما وليد قابع بهدوء في مقعده .. وساعته تدور في زوايا المكان .. لم يرف له جفن .. لم يظهر جزعًا على صديقه الذي استشهد .. إحساسه المتبلد لم يسعفه في ادعاء الحزن أو القلق .. تناثر الكل من حوله كقطع لقلب تمزق... تشظى .. تطاير بعضها ليحط على أغصان الزيتونة التي يرقد تحتها شهيدها الحبيب .. تسلل وليد كخيط من الصديد قد نز من جرح فلسطيني قديم ، وانتهى إلى بقعة عفنة تحت قدم مينز ...

أين وليد ؟ .....سؤال ظل يلح على رأس أم نضال ، ورؤوس كتيبتها الحزينة إلحاح الشواكيش على رأسها .. أين وليد ؟ ومن هو هذا الوليد ؟

كان دم عماد يصرخ .. إلى متى ؟

انطلق نضال ، وانطلق حسام .. وأحمد الجعبري ... لقد ابتلعت الأزقة الخلفية وليد ، وكلما ظهر اختفى في الوقت الذي تجمعت حواس المجتمع تطلبه ، ولم تكن أم نضال في حيرة أو متاهة ... تستعيد كل حركة من حركاته ... وكل سكنة ، وكل نظرة ، كل انتباهة .... تربط بينها فترى في كل واحدة منها رصاصة قد أصابت قلب عماد .. ولكن نذير الظلم يؤرقها ...

يلقب رأسها بألف لا ... لا تتعجلي .. لا تظني ... لا تغتابي .. لا تكذبي .. لا تلفقي .. تقف عاجزة أمام سوط (لا) الذي يشوي إحساسها ...وإحساسها يقول : ما افتريت ، ما كذبت ، ما ظلمت .. هل رأيت حرصه على المجيء وملاقاة عماد؟ هل رأيت التزامن بين مجيء الخنازير البرية ، وبين وصوله ؟ هل رأيت تردد عماد النابع من حس صادق جعله يحذره ويحذر منه ؟ هل رأيت أنه لم يعر وعوده اهتمامًا ؟ هل رأيت حدسه، وسمعت دعاءه أن يرزقه الله الشهادة وهو يصعد إلى السقف مع ذلك (الوليد) ؟ هل رأيت تهلل وجهه الذي حاكاه البدر ؟ ما الذي دفعني إلى الاحتفاظ بكأسه وفي هذه الليلة بالذات ...؟ هو وليد أنه هو الذي قتل عمادًا ، وستكشف لك صدق ما أقول ..

- تجاذبتها المشاعر والانفعالات ... لكنه أين ؟
- أجاب نضال : أنه معتقل لدى السلطة ..
- لماذا ؟ تهللت بسؤال بدا مفاجئًا لمشاعرها، فاستيقظت فجأة ...لماذا ؟ ومن أخبرك؟
- لأنه عميل ... وقد أخبرني بذلك شخص ..
- سرحت أم نضال .. وانسابت دموعها .. قفز حدسها ... ألم أقل لك ذلك ؟ صاح نذير الظلم : تريثي ...
- انسحبت من نفسها على صوت نضال : لابد من اختطافه والتحقيق معه ..
- سألت : كيف ..؟
- أجاب : ستقله سيارة الشرطة إلى المحكمة ... ينقض شبابنا على السيارة ، ويؤخذ منها وليد ...

- همست : لا .. لا .. ستكون مجزرة ..

- لم تقنعه همستها ... خرج ... عاد .. انتقلت المحكمة إلى السجن حيث وليد ... وكأنهم قد نما إلى علمهم ما حدثتنا به نفوسنا ... إذن ؛ فلنصل إليه .. أبدى السجان استعدادًا لإعدامه بعد أن تأكد من إقراره أنه قتل عمادًا .. وياسر النمروطي .. ومحمد قنديل ..ومروان الزايغ ... وياسر الحسنات.. هو الذي جاء بمائير مينز وشمشون وكل الخنازير البرية لقتل عماد ... وافق نضال .. زوده بقنبلة شديدة الانفجار .. تكفي لتحويل أجساد العملاء الثمانية الذين يساكنون وليد في غرفة العار إلى أشلاء .. ومرت الدقائق ثقيلة .. لم تنفجر .. وعقل نضال هو الذي انفجر .. بعد أن امتلأ بشحنة من الشك القاتل في (السجان) لكنه وبعد يومين استفسر : لقد أصاب القنبلة عطب ولم تنفجر .. إذن فلنعد المحاولة ، بعد التثبت من إصلاح ما أصابها..

****

دوى انفجار ولكنه هذه المرة في جسد نضال ..

ثم دوى انفجار آخر في زنزانة وليد... إلا أنه لم يقتل .. أصابته شظية غير قاتلة .. ونقلوه إلى المستشفى .. هي خطة نضال... فلا بد من خطة بديلة... أصدر أبو قسام قائد المجموعة أمرًا حازمًا لتنفيذ الحكم بإعدام وليد ..الذي أبلغه به أحمد الجعبري .. وضع الخطة على عجل .. اثنا عشر قساميًا يدخلون المستشفى بمسدساتهم .. يدخل أحدهم بمعطف طبيب .. ويجهز عليه بسكين .. عشرات من رجال الشرطة يحيطون بالمكان وينتشرون في زواياه .. لا إمكانية للوصول إلى غرفة العناية المركزة لكل من لا يملك كلمة السر .. مفتاح الدخول إلى غرفة وليد .. دخل ذو المعطف الأبيض .. خرج على عجل .. لم تطاوعه يده أن يجهز على الحقير ..

قالها القائد أبو قسام لمن حوله .. ولكنها الفرصة الأخيرة .. فتحرك شمالاً .. وانعطف يمينًا .. رأى بابًا خلفيًا يؤدي إلى قسم العناية .. يقف عليه شرطيان .. إذن فليتحرك الشباب .. وليدخل ذو المعطف الأبيض .. ما عليه إلا أن يفتح الباب عند سماعه دقات ثلاث ثم دقتين ..

****

تقدم أحدهم .. فثان .. فثالث .. بلا ضوضاء.. أشهروا مسدساتهم في وجهي الشرطيين اللذين سرعان ما استسلما .. ثلاث دقات .. فدقتان .. دخل اثنان يحمل أحدهما سلاح عماد الرشاش إم 16... إنه مؤمن .. نظر الحقير .. رآه...عرفه .. رأى فوهة سلاح عماد .. صرخ : لا .. لا .. لا .. عاجله مؤمن برصاصات بأضعاف لاءاته .. تسع رصاصات .. أربعًا في عينيه اللتين رأتا رأس عماد وأشارتا عنهما لمينز .. هنا ضع رصاصك .. وخمسًا في قلبه الذي يحمل الخيانة والغدر والجاسوسية، والذي أوعز به لمينز؛ فقتل عمادًا وصحبه من قبل .. وخرجا كأن لم يفعلا شيئًا ....

- آلو .. ماذا فعلتم ؟

- انتهينا ..

ظن أحمد الجعبري أن العملية قد باءت بالفشل ..

- لا.. نفذنا حكم الإعدام في الحقير ..

- أبهذه السرعة ...؟

- نعم .. ست دقائق فقط ، ولكن بعد أكثر من ست سنين... تبحث عنه يا أبا محمد !!

كان خلالها في غرفة العار سجينًا .. لم تسع الدنيا أم نضال وهي تستقبل روح عماد

التي أخذت تحوم وتحوم فوق رؤوس أبي القسام وحسام ومؤمن وأحمد .. أترقص .. أتزغرد .. أتصفق .. أتصلي .. حسمت روح عماد ترددها .. فقد أمرتها بالسجود مرددة : وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا ..

وأضافت إليها : ولكم في القصاص حياة .....

ثم إلى الجحيم أيها الحقير .. وكل حقير....

****

(وجاء دورك يا رواد)

اشتعلت المعركة يا حسام .. تقدم الجيش الصهيوني .. دباباته .. مجنزراته .. يهاجمون .. يقصفون المجاهدين .. والمجاهدون ثابتون .. لكن توشك صواريخهم على النفاد ، هذا ما أخبر به أحد المجاهدين (مؤمنًا) وقد جاءه بسرعة البرق .. وأنفاسه لاهثة ....أخذ مؤمن ورواد والرسول ينقلون الصورايخ إلى السيارة .. أمر مؤمن أخاه أن يسرع إلى المجاهدين بالمدد.... طارت السيارة تنهب الطريق .. فجأة أصابها صاروخ فثان فثالث من طائرة الأباتشي التي تحوم في المكان ... عين خائنة تراقب حركة بيت أم نضال؛ منه وإليه ...

- رن هاتف حسام .. أتعلم ماذا جرى ؟.. هو يعرف صاحب الصوت .. لم يشك لحظة في أنه هو (أبو مجاهد) ...

- ماذا جرى ؟ ملأ الذعر صدره ، تلاحقت أنفاسه .. تكلم ماذا جرى ؟

- اصبر واحتسب ...

- على ماذا؟

- قصفت سيارة رواد وقد استشهد ..

- صرخ حسام : ماذا تقول ؟

- ما سمعت ، وها هو في ثلاجة الشهداء ..

- صرخ: يا الله .. يا الله .. يا الله .. نزل على عجل ..

- هل علمت ماذا جرى لرواد ؟

- انقطع نفسها .. لم تعد لها أنفاس .. وبإشارة مع زفرة: أأستشهد؟ نعم ، لقد نال ما تمنى .. وما تمنيت له .. عادت إليها أنفاسها هادئة ، وقد اغتسلت بعرق بارد ، الحمد لله .. بكت .. ارتفعت شهقاتها ... ناولها جرعة من الماء .. رش وجهها بحفنة منه .. ارتخت أطرافها.. تراقصت الجدران أمام عينيها .. ها هي الحور العين تستقبله .. وهاتف من السماء يرحب به .. لا ليس وهمًا .. إنه أصغر أبنائي ..وأكثرهم دلالًا .. يا رب صبرني .. أنت تعلم أني أحبه ..وهو رفيقي .. ولقد خرج أخوته ولم يبق إلا هو .. خرجوا ما بين شهيد وأسير ومتزوج ومقاتل .. إلا روادًا .. رب ألهمني الصبر والسلوان .. أجهشت .. نعم يا رب .. لهذا اليوم أعددته فاقبله في الصادقين .. أنت تعلم أنني أعطيته سلاح محمدٍ ،ولم أبخل به عليك ، فاربط على قلبي .. استغرقت أم نضال في مناجاتها .. حمل السلاح يا رب وهو ابن الرابعة عشر .. لقد رأيته يا رب وهو في عرض القسام العسكري .. يحمل سلاح محمد .. ليقول للدنيا: أنا على دربه ، وأعمل كي ألحق به ، لم ترهبه عيون الجواسيس ، ولا سوط وكلاء الصهاينة في ملاحقة المجاهدين ... فاقبله ربي في الصالحين .. اقبل رباطه لثلاثة أعوام لم يتخلف يومًا حتى بلغ السابعة عشر ..لقد رأيته يا ربي وهو يجاهد، ويضرب أعداءك ، مقبلًا غير مدبر ، حتى كان ما بينه وبينهم أقل من أربعين مترًا ، وقد شهد له بذلك يا رب عبد

الرحمن نصار، زميله ورفيق دربه ... لقد أراك ربي ما أفرحك .. لقد قذف صهيوني بقنبلته بمجرد أن أطل برأسه من الدبابة، فأصابه إصابة قاتلة ... استغرقت أم نضال في مناجاة ربها ... ذاهلة عن أولادها الذين تحلقوا حولها وهم يغرقون في بحار دموعهم .. فتحت عينها .. رأتهم .. أمرتهم بالسجود حمدًا وشكرًا .. وكذا فعلت .. وكأنها القائد .. أو الإمام .. أو القدوة ...إنها أسوة في الصبر والاحتساب .. قد أمرتهم بالاستعداد بابتساماتهم لاستقبال المهنئين الذين لم تستقبلهم منذ ثلاثين شهرًا من بعد استشهاد نضال ... يا سبحان الله .. ودفقت عيونها بالسيول .. التفت حسام لزوجته ... ها يا أم على؛ أرأيت صبر الوالدة؟ فاضت عيون أم علي بالدموع .. لقد تعلمت منها الفرق بين القبول بالقدر والرضا به ، فالقبول أن تقبله حتى ولو فرض عليك ، وأما الرضا فهو الحمد والشكر مع القبول .. لم أر امرأة تخجل من دموعها كأم نضال مع أن قلبها يكاد ينفطر ... صبرها .. أبدًا .. أبدًا .. ليس له نظير .. أتشكر يوم أن جاءها رواد وقد أغرقت دماء زميله وأشلاءه ملابس رواد بعد أن أصابه صاروخ وهو بالقرب منه ..

- قال حسام : أذكر .. ويومها اغتسل .. ولبس الجديد .. .. وأمرته بالرجوع إلى الميدان ... والأعجب أنها هي من جعلت من رواد يعشق الرباط عشقًا لا حد له ، وهو – بعد – في هذه السن ....

- سألته مرة : ألا تتعب من السهر في رباطك ووقوفك طيلة الليل ..

- فقال : نعم أتعب .. حتى لا أستطيع النهوض ، ولكن لأن ذلك في سبيل الله تغمرني السعادة والرضا ...

****

(وسام ... عريس)

احدى عشرة سنة انقضت على سجن وسام .. وجاء يوم الخروج وأسبوعان واحد على فراق رواد .. عصفت بها المتناقضات .. هل تخرج لاستقبال وسام بفرحة الأم التي التهبت شوقا لرؤية ولدها بعد طول غياب .. أم تظل حبيسة الأحزان على سميرها و حبيب قلبها رواد ، الذي فارقها منذ أسبوعين ... استسلمت لشوقين .. شوق اللقاء .. وشوق الأماني والذكريات لرواد . نعم لقد هدأت النيران التي ما أن تخبو حتى تشتعل على فراق نضال وفراق محمد من قبل .. لقد هد من قواها المشهد .. وقسوة الصداع لكن (في سبيل الله ما نلقى) رددتها مرارًا وهي تسترجع ..

****

وجدت نفسها وقد غلبها شوق اللقاء بوسام .. سرحت .. عمره اليوم اثنان وثلاثون عامًا .. منذ ستة أعوام حرمت من زيارته .. أبناء جيله لهم زوجات وأولاد وبيوت وعمل ، وسام يخرج إلى الدنيا وسيجدها غير الدنيا التي تركها .. جاءت السلطة .. استشهد أخوته الثلاثة .. أبوه مريض .. أخواته في أحزانهن على أشقائهن .. وألف آه وآه .. ذهب الشيخ أحمد ياسين .. ذهب عبد العزيز .. لكن الحركة ..قوة .. فكرة .. انقلاب .. جماهير .. جيش ... شهداء .. كم ستكون مشغولًا عني يا وسام ..

****

سمعت لهفة حسام .. أمي لقد وصل وسام .. ابتهجت .. أرادت أن تزغرد .. لكن زغرودتها انحبست .. لم يسمع لها صوت .. تصورت أن روادًا بجانبها .. كيف سيستقبل أخاه؟.. كان طفلًا يوم أن سجن وسام .. دخل وسام .. هوى على رأسها ويديها وقدميها .... شبع من تقبيلها .. لا لم يشبع بعد .. أخذها في حضنه .. لا يريد أن يتركها .. بكيا معًا .. ضحكا معًا .. توقفت الألسنة .. لم تعد تقوى على الكلام .. آلاف المستقبلين .. لم يبق في البيوت من أحد .. كلهم جاء لاستقبال وسام .. جاءوا ليقولوا لأم نضال نحن أولادك .. فقدت ثلاثة ، فعوضك الله بالآلاف ... شعرت أنها تسير فوق السحاب ، رقص قلبها ، وكم هي قليلة المرات التي رقص فيها ..

***

- أمي أريد أن أتزوج ... قالها بكل جرأة .. أريد أن أستريح .. أن يكون لي بيت وولد .. لقد أرهقني السجن .. وعذبني .. أريد أن .....

- وقبل أن يكمل قاطعته : ماذا تعني .. هل ستترك الجهاد يا وسام ؟

- لا .. لا؛ أريد أن أطمئن على أمي التي علمتنا معنى التضحية ودفعتنا لها ... أقسم لها .. أن لو جاء الأمر بالخروج الآن للشهادة لخرجت .. احتضنت رأسه .. وقبلته .. وهو يدرك أن ألمها على رواد سيف يقطع قلبها ..

****

أعدت له كل شيء .. البيت والأثاث .. وأخذت تبحث عمن ترضى بشرطه .. إنه مشروع شهادة ... إنه من جند القسام .. حتى وجدتها .. وقد اجتمعت فيها الشروط التي اشترطها

... وبقي لأم نضال شرط .. ألا يدخل على النساء في حال عرسه على منصة الفرح ..

أدهشت أم نضال بسخائها أهل العروس ، بهداياها ، وعفتها وحيائها وأدبها ...

*****

(وذهب الرفيق إلى الرفيق الأعلى)

لم تمر الأيام هادئة على بيت أبي نضال ، فمن مداهمة إلى أخرى ، ومن اعتقال إلى ثان وثالث ورابع .. لم يجتمع وأولاده منذ أن اعتقل نضال لأول مرة ، ليستقر في قلبه ألم الفراق و يتجذر .. عاطفته وحبه الغامران يجعلان من فؤاده طائرًا ، ما إن يحط على غصن حتى تلاحقه نيران الصياد ، ليحط على غصن آخر، وفي كل مرة تجرحه أشواك عمياء .. ثم لاحقته آلام الفراق الذي لا لقاء بعده .. شهيد إثر شهيد ، بدأها محمد بكل نضارته وحيويته ورقته وحنانه ، كان الكأس علقمًا ، لم يذق أبو نضال بعدما تجرعها حلاوة في الدنيا .. مرارًا يتجرعه ولا يكاد يسيغه .. ثم نضال أول فرحته في الدنيا .. راح نضال في غمضة عين .. نعم ظل له في الدنيا رمق .. حاول بالدعاء وبالضراعة والبكاء أن يبقي ذلك الرمق ، إلا أن سهم الله نفذ في قلب نضال ، ونقله إلى هناك إلى حيث محمد ، الذي أوصله نضال بيده إلى ساحة البطولة والشهادة ، كان الشراب هذه المرة سامًا .. سرى في كل جسد أبي نضال .. زافت روحه .. تمنى أن يلحق بهما ... ولكن لا سبيل .. نظر حوله .. ليس وحده... قصف وائل نصار .. حبيب قلبه وقلب نضال .. طلب إلى ولده أن يأخذ بيده ليسير في موكب الشهيد .. ذهبا .. سار بصمت الدموع ، وبدموع الصمت .. ولم ينتبه إلى الحسرة التي صار لها مخالب وأنياب تنهش قلبه وقبل أن يعود إلى البيت فإذا بجنازة ماضي ماضي، ابن الأربعة عشر ربيعا ، علم ممن حوله أن شظايا ملتهبة قد حطمت عظام صدره ، وضربت في قلبه الصغير فمزقته .. ولحق – على الفور – بوائل

...إذن فلنسر في موكبه .. فأخذ منه الإرهاق ما بقي له من قدرة على التحمل .. وضع يده على نافذة السيارة ثم أسلمها خذه الأيمن .. فاضت عيناه بالدموع .. أنفاسه تتلاحق .. صرخ يا رب أما لهذا العناء من آخر ... يا رب أسألك الراحة .. لم أعد أطيق .. بيتي قد قصف مرة ومرة ... تشتت شملي .. يا رب .. ارحم زوجتي وأولادي .. استبد اليهود يا رب وحرقوا أكبادنا .. يا رب ها نحن نعيش في منزل صغير لا ماء فيه ولا هواء .. ولا بصيص نور .. يا رب لم أعد أطيق .. أشاح عنا الصديق وجهه ، وأما العدو فقد أنشب في قلوبنا أنيابه .. نرجو رضاك .. نعوذ بك من سخطك ..

كان حسام يستمع إلى مناجاة أبيه لربه ... ويده على مقود السيارة ، فأخذت تهتز .. إذ لم يعد بقادر على أن يحكم قبضته ، فرأسه يكاد يتشظى ، وقلبه يتشظي ، ولم يعد يرى الأشياء مستقرة في أماكنها .. كلها تعدو .. كلها تهتف .. كلها تختبئ ... كلها تصارع الجنود ... ولكنه وصل إلى البيت وصول ربان أخذت الأمواج الهائجة تضرب سفينته من كل الجهات ، حتى كادت أن ترطمها في جبل من الشعب المرجانية ... وصل حسام وانزل والده الذي سار بخطى متثاقلة ، لف أبو نضال ذراعه اليمنى على رقبة حسام مستندًا إلى كتفيه ، بينما أحاط حسام والده من تحت إبطيه بيده اليسرى .. ثم خطوة خطوة ... ودرجة درجة ، حتى أنامه على سريره ، بعد أن سقاه كوبًا من الماء .. تنهد بعدها ... وأسبل جفنيه ... واستغرق فيما يشبه الإغماءة... وبعد ساعة اختلج جسمه ، جحظت عيناه ... تحشرجت أنفاسه .. نهض حسام ... نادى من في البيت .. تعاونوا على نقله إلى السيارة وذهبوا به إلى المستشفى .. لا تزال الأشياء غير مستقرة .. الأشجار والجدران .. والحوانيت .. كلها في هيجان .. والثابت الوحيد هو السيارة .. لا تكاد تتحرك رغم أنها تنهب الأرض ... يدوس بعنف على دواسة الوقود .. زامورها لا يكاد يسكت .. ضجيج .. ضجيج .. دخل المشفى .. تلاحقت الأجسام ... دخل الأطباء .. أضاءوا مصابيحهم

في عينيه .. لم تستجب للنور المنبعث منها رغم شدة نفاذه ... ظهرت علامات الأسى على وجه الطبيب .. جلطة حادة في المخ .. وفي أقل من ساعة .. ذهب أبو نضال وبصمت الدموع ، ودموع الصمت ، ودعته أم نضال بعد رحلة حياة امتدت لستة وثلاثين سنة ، ذهب أبو نضال المحب الذي أعطى حشاشة قلبه لهذه الحبيبة ...

***

(مع المرابطين)

دق الباب ... دقة تعرفها أم نضال .. إنها تقى .. صديقتها التي تحرص على أن تقضم من اسمها حرف الواو .. وكأنها (تدلعها) بدل أن تقول لها تقوى .. تعرف جيدًا أنها مصرية .. وتعرف أنها قد انتظمت في صفوف الإخوان منذ أن كانت في الرابعة عشر من عمرها . وتعرف أنها من بني سويف في صعيد مصر .. كما تعرف أنها زوجة فلسطيني دارت به الأيام من قطر إلى قطر ، فقد كان منتظما في صفوف الثورة الفلسطينية يوم أن كانت ثورة .. وحطت بها الرحال في اليمن .. ثم جاء على متن (أوسلو) التي تسميها تقى (الجريمة) التي حلت بالقضية، وليس لها من فائدة إلا أنها حملت بضعة آلاف من (المناضلين) وأسرهم ، وعادت بهم إلى غزة والضفة الغربية ، ومنهم تقى وزوجها ...

- أهلا تقى تفضلى

- أهلا مريومة ... كذا كانت تناديها تقوى

ما لبثتا إلا أن خرجتا

- الفكرة بسيطة يا مريومة .. لقد اغتال اليهود الشيخ أحمد ياسين .. وهأنت تدورين حول نفسك ، وقد أغرقتك الفاجعة .. واستبدت بنا جميعا الحسرات والآلام والأحزان ..

- هل نستسلم ؟ طبعا : لأ

- إذن ماذا نفعل ؟ .. يجب أن ننتزع الفرحة من قلوب هؤلاء المجرمين .. ونقذف بالحبوط واليأس بدلًا عنها فيها .. يجب أن يفهم هؤلاء المجرمون بأن قتل الشيخ هو بداية لمرحلة جديدة عنوانها (سنجبركم على الخروج من أرضنا ... ولن نيأس) فإن قتلتم أحمد ياسين .. فقد مات رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولم ننكص على أعقابنا ولم نرتد إلى الكفر .. لم ننهزم .. لم نرفع الراية البيضاء .. هو الإسلام يا أم نضال .. هذه الطريق هي طريق الشهادة ... انظري إلى شهداء بدر وأحد ...انظري إلى مذابح القراء من الصحابة .. انظري إلى حمزة .. انظري إلى القدس .. وكيف حررها صلاح الدين ، انظري إلى حطين وعين جالوت ، هل توقفت المسيرة بقتل قائد أو ارتقاء شهيد ... أو ألف .. أو عشرة آلاف أو سبعين ألف .. لا ... هيا انهضي .. يجب أن نقدم اليوم رسالة جديدة للكون كل الكون .. لا للصهاينة فقط .. انتبهت حواس أم نضال .. نهضت من أحزانها .. تحفزت تحفز ذلك الجندي الواثب من القدس إلى يافا .. مر من أمامها شريط طويل طويل .. انتهى بمحمد ، ونضال ، يتقدمهم عماد ... المسيرة تنطلق وما عليها إلا استئناف اللحاق ... عبد العزيز يظهر على شاشة التلفاز أشد عنفوانًا مما عرفت فيه .. إصرار على مواصلة الطريق .. نشيد يعلو ويعلو...

هل تعرف من هو يا ولدي أحمد ياسين

ثبات ... إقدام .. ويقين ... أحمد ياسين ..

تسللت إلى شفتيها (خلسة) ابتسامة على استحياء ..

- سألت : ماذا تنوين ..؟

- قالت تقى : نخرج إلى المسيرة بالسلاح...

اتسعت ابتسامتها ... كنت حملت السلاح لأضعه في يد محمد وإخوته .. وقد كنت أحشوه بالرصاص وقد قرأت على كل رصاصة سورة ياسين .. وأعطاني صلاح .. سلاح محمد .. وها هو معلق في صدر البيت .. ولا أخفيه إلا عندما يدق خنازير البر الباب .. لاعتقال أحد أبنائي .. أو للبحث عن سلاح .. إذن لابد أن يرى الكون كل الكون أن المرأة الفلسطينية تحمل اليوم السلاح جنبًا إلى جنب مع الرجال .. لا بد من أن يعلم العالم أن مرحلة جديدة قد بدأت .. راقت الفكرة لأم نضال .. وسرعان ما تناولت سلاحها ... ثم قطعة أخرى لتقوى .. وثالثة .. وجاءت ابنتها إيمان لتعصب رأسها بعصابة القسام ... وما هي إلا ساعة حتى كانت أم نضال وصاحباتها حديث العالم .. لقد توجهت إليهن الكاميرات والفضائيات وكان الجواب.. أنا خرجت بسلاحي لأقول : إن أحمد ياسين قد استشهد نعم، ولكن رسالته فينا . في قلوبنا .. وإصراره هو إصرارنا .. هدفه هو هدفنا .. وإذا كان قد فارقنا أحمد ياسين .. فكلنا أحمد ياسين .. رجال ونساء .. نحن النساء الفلسطينيات لنا وطن لابد أن نتشارك في استرداده ، ولنا عدو لابد من طرده وتحرير بلادنا منه ...ولنا كرامة لابد أن نصونها .. ولنا القدس لا بد من تطهيره .. هكذا تعلمنا من أحمد ياسين .. لقد أخلص لكل ذلك .. وها نحن نخلص لما أخلص له ... وأجابت تقوى : أنا مصرية .. عربية ... مسلمة .. قضيتي المركزية هي فلسطين .. أمثل كل نساء العالم الباحثات عن الخلاص والحرية لشعب مضطهد ... مظلوم .. أنا أمثل هدف أحمد ياسين ... في رص الصفوف العربية والإسلامية ، وأحرار العالم من حول القضية الفلسطينية ، ومقدسات المسلمين لتحرير الأقصى الذي هو آية من كتاب ربنا ، وبذا فالقدس (عالمية) وليست للشعب الفلسطيني فحسب .. وليس عليه وحده واجب تحريرها .. القدس هي همزة الوصل بين الأرض والسماء

.. فالتفريط فيها تفريط بآية من كتاب الله، وهذا جحود وكفر ... لذا خرجت بسلاحي لإحياء هذه المعاني في نفوس المسلمين ..

كانت الفكرة أشبه بإلقاء كتلة صخرية في بئر عميقة ساكنة ، لها دوي ، قد شدت أنظار العالم ، وفي مقدمته أنظار الصهاينة الذين أيقنوا بأن المرحلة القادمة مرحلة جادة ولن تكون سهلة .. فتاريخ مشاركة المرأة في التصدي للاحتلال حافل فهناك العشرات منهن وراء القضبان .. فمنذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها أقدامه ما بقي من فلسطين إلا وكانت المرأة في قلب الصراع .. يستذكر الاحتلال عايدة سعد .. وليلى خالد .. يستذكر صمود المرأة في تربية الجيل ، والمشاركة في تصليب جدار المقاومة ، ودورها السياسي العريق .. يستذكر الاحتلال أنها مربية الأبطال ومنجبتهم ، وأنها زوجة المناضل وابنته ، وأن منهن من ضمدت الجراح ، ونقلت السلاح .. وهن اللاتي زرعن الأرض في غيبة الرجال ، هن في مقدمة من يقذفن وجوه المحتلين بالحجارة ، لا يبالين برصاص الاحتلال ولا بهراواته ... وها هي أم نضال .. تقدم الشهيد تلو الشهيد .. والبيت يقصف إثر البيت .. تضع المطاردين في سويداء قلبها عندما تضيق الفلا بهم ... قلبها كان مسكنًا لعماد وصحبه .. ثم أليست أم عبد العزيز الرنتيسي امرأة فلسطينية ، والتي فاق صبرها الخيال ، على إجرام الاحتلال بحق ولدها ، فمن سجن إلى إبعاد إلى تعذيب إلى حصار أو مطاردة .. إذن لم تكن أم نضال وتقوى بدعًا في تاريخ المرأة ، ولكن الجديد أن يراها العالم معلنة عن كتيبة من كتائب القسام في اليوم الذي يستشهد فيه الشيخ أحمد ياسين .. إذن فزع الصهاينة لميلاد شقيقات يحيى عياش ، وحسن سلامة ، فليستعد الاحتلال لنموذج جديد قد يفجر في قلب قلبه العشرات عشرات الأحزمة ، والأجساد المقنبلة ...

****

عادت أم نضال مساء وقد أراحتها المشاركة، ووجدت فيها منطلقًا جديدًا لكوامن نفسها الأبية التي تأبى الركون أو الاستسلام ، منذ أن تفتحت عيناها على أسرة أبي أحمد مهنا ، التي طردها اليهود من المسمية ، ثم العدوان الثلاثي ، وبتر ساق العم أبي خليل ...ويوم أن رأته في المستشفى فانكبت عليه تقبل رأسه ، حتى تساقطت دموعها على عينيه .. ثم يوم أن كانت تردد نشيد : الله أكبر فوق كيد المعتدي .. يوم رأت ذلك الجندي الواثب من القدس إلى يافا ... ويوم ..ويوم .. شعرت أم نضال براحة عجيبة .. الآن يا مريم وضعت قدمك على أول طريق دورك الأصيل ، نعم ودعت أبناءك إلى الشهادة .. نعم قد أحطت المطاردين بكل حنانك ورعايتك .. نعم آويت عمادًا لأحد عشر شهرًا، واستشهد حيث عزمت أن تبني له بيت الزوجية في صحن دارك .. نعم تصديت باللسان وبالقلب وبالحجر .. لكن أن تحملي السلاح ليعلم الكون أنك ستضغطين على الزناد في الوقت المناسب ، وقد تضغطين على الصاعق ليتحولوا مع جسدك إلى أشلاء متناثرة .. أنت مقابل العشرات .. إن لم يكن أكثر .. فهذا هو الجديد .. ألقت بنفسها على الأرض وسالت دموعها بصمت أو سال صمتها دموعًا .. استغرقت في نوم لذيذ .. رأت فيه عمادًا يتبسم لها : مرحبًا من بعيد .. طلبت إليه أن يقترب ؟ تمنع وقال : اقتربي أنت .. فلقد أفردت لك جناحًا هنا في الفردوس الأعلى .. هيا يا أمي .. هيا يا أم نضال ... كان – كما رأته– نورًا يشع ويغمر الكون من حولها .. لم يبهر بصرها .. رأته كما هو يوم أن وثب ومسدسه في يده اليمنى .. رأته نورًا يصلي الركعتين كالبدر .. حاولت أن تندفع نحوه .. وإذا بصوت آذان الفجر يوقظ حواسها .. الصلاة خير من النوم .. فركت عينيها .. لا لم يكن حلمًا بل حقيقة .. ليت الأذان قد تأخر دقائق لأصل إلى النور ، وأرى الجناح الذي أعده لي عماد .. ابتسمت .. وتمتمت ... إذن

أنا على الطريق .. وإذن فالله راض والحمد لله .. وإلا لما جاءني عماد بهذه الهيئة ليخبرني بمسكني عنده .. لا ليست أضغاث أحلام بل هي بشرى ، بشريات .. قومي يا مريم قومي وواصلي الطريق ...

****

(المرابطون مرة أخرى)

جلست أم نضال تتدارس القرآن مع تقى ، وأم حلمي ، توقفت عيناها عند (يأ أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ....) قال لها الشيخ أحمد : إن الخطاب للنبي الأكرم صلى الله عليه وسلم خطاب لأمته ، ما لم يرد دليل يقطع بأنه خاص بالنبي – صلى الله عليه وسلم – وهنا لم يرد الدليل القاطع .. إذن (فحرض ...) أمر ، وليس بقاصر على النبي فحسب ، إذن فهو موجه لكل مسلم ومسلمة ، أكدت تقى على صحة هذا الاستنباط ، وأيدت أم نضال، فيما انقدح ذهنها على الطواف على المرابطين ..والتحدث إليهم لتحريضهم على القتال و تثبيتهم ..ليتيقنوا أنهم ليسوا وحدهم، بل كل الأمهات و الأخوات و الزوجات والبنات ...المرأة الفلسطينية معهم ..ولن تتخلى عنهم ...انطلقت المجاهدات بنفس العزيمة و الوعي، أداء للواجب الذي أوجبه الأمر الإلهي(حرض..)وقد علمت أن الأمر الإلهي يفيد الفرض ..إذن فالتحريض على قتال المحتلين و الغاصبين من الصهاينة فرض على كل مسلم ومسلمة ،شأنه شأن الصلاة و الصوم و الزكاة ....والجهاد سواء بسواء

وقد سمعت من تقى أن الجهاد لا يتم إلا بعد أن يعرف المسلم أحكامه و أركانه و سننه و نواقضه ليصبح بعد ذلك مجاهدًا ...وإن كان الجهاد فرض ، فما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض، إذن معرفة أحكام الجهاد و أركانه و....فرض وهذا هو التحريض بعينه

***

وضعت أم نضال برنامجًا أسبوعيًا ألزمت نفسها به ..كما التزمت به تقوى ..و لقد جندت أم نضال ابنها حسام الذي تكفل بإبلاغ قيادة القسام في ذلك ،على أن يكون مرافقًا لها و لصاحباتها ، يخرج بسيارته ...محمله بألوان الهدايا من طعام و عصائر و كتيبات تشتريها أم نضال من حر مالها ،وقد أبت إلا أن تفعل ذلك ...

ألم يقل الله "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة"

ألم يجهز عثمان رضي الله عنه جيش العسرة

ألم يقل النبي الأكرم صلي الله عليه وسلم (من جهز غازيًا فكأنما غزا)...

انطلقت السيارة لأول مرة تحمل أم نضال و صاحباتها، كان النصف الأول من ليلة شاتية قد انقضى ...و الساعة الآن هي الواحدة بعد منتصف الليل رأت شبابا فارعي القامات ..يلبسون اللباس العسكري المرقط ..أخفوا وجوههم خلف أقنعة سوداء ..وعلى رؤوسهم عصابات خضراء تحمل شارة القسام ..سواعدهم مفتولة ضاغطة على الزناد، ويقفون في شكل مستطيل بثلاثة أضلاع ، وقد تركوا الضلع الرابع لتملأه أم نضال ومن معها ..صرخ القائد ..انتباه ..سمعت خشخشات السلاح ..و صفقات أيديهم على أعقابه على مواضع مخازن الرصاص ...سرحت روحها رأت سلاح عماد..هو نفس السلاح الذي يحمله هؤلاء المجاهدون ..لابد أنها غنائم عماد و صحبه .. تعرف أنواعه ..لكنها ترى في يد القائد قطعة جديدة لم ترها من قبل ..

- همست بمودة: ما اسم هذه القطعة ..

- قال حسام :كتسار ...غنمها الشباب من ضابط صهيوني بعد أن (خلصوا)عليه و هي أحدث أنواع الأسلحة الصهيونية ..و تمنت أن يكون لها قطعة مثلها ...ولكنها كتمت أمنيتها حتى لا يجود القائد بها لها...فتقع في حرج ...

- قالت تقوى:تكلمي

- قالت أم نضال:أنت تدركين أنني لا أجيد الكلام، فتكلمي أنت

حسم حسام ذلك الحوار ...نقدم إليكم المجاهدة أم نضال؛ إذن هي وجهًا لوجه أمام الحقيقة ...فلا بد أن تحرض على القتال ..ليس التحريض بالمجئ فقط بل بالكلام ..فإن الله عز وجل عرف على نفسه بالكلام و أمرنا و نهانا بالكلام ..فما الآيات إلا كلام، و خاطبنا الرسول بالكلام، وهذا التراث الفقهي العظيم كلام، و أحاديث الشيخ يعقوب كلام، و أحاديث الشيخ أحمد ياسين كلام ...إذن تكلمي يا مريم ...أخذ صوتها يخرج من بين شفتيها خفيضًا ..حييًا حياء عذراء ...وما أنهت ثلاثًا أو أربع عبارات حتي صرخ أحد المرابطين: الله أكبر ولله الحمد، فردد الجميع ،وسمعت رجع الصدا ..الله أكبر ولله الحمد ..في سبيل الله قمنا نبتغي رفع اللواء ،فليعد للدين مجده ولترق منا الدماء ..الله أكبر ولله الحمد ..رددت أم نضال هذا الهتاف الخالد.. و عادت لتتكلم وقد امتلأت فتوة و عزيمة فخرج صوتها قويًا بنبراته الحادة، التي تحمل التأكيد على المضي في طريق ذات الشوكة ،و الإصرار على نيل الشهادة أو النصر ..خطر لها صوت عماد وهو يقول: أستودعكم الله ..ولكنها ابتلعتها لتقول :والآن معكم المجاهدة ....هتف الشباب ..ضاع اسم تقوى في الزحام... الأمر الذي اضطر القائد أن يتدخل ليعيد النظام و الانضباط ..أمرًا ..انتباه..للأخت تقوى ..التي أكدت على نفس المعاني التي قالتها أم نضال، وتضيف : إنني أرى عظمة الإسلام و تاريخه المجيد ..تحدثت عن معارك الرسول صلى الله عليه وسلم

وعن الحق الذي اغتصبه الصهاينة ..وعن بطولات الشعب الفلسطيني ..وعن حب المصريين لهذا الشعب ..عن قوانينهم و عطائهم وبذلهم ،وعن استعدادهم للمزيد ..لتختم (إعلموا أنكم لستم وحدكم..)وإذا كان نظام الحكم لا يقف معكم في ظاهر الحال ، فإن الشعب المصري معكم ، فقضيتكم هي قضيته، ودماؤكم هي دماؤه،ومقدساتكم مقدساته ...عاد الهتاف و التكبير و التهليل

***

كان لتطواف أم نضال على المرابطين أثر بالغ في نفوسهم، كما كان أبلغ الأثر في نفسها تحرك لسانها الذي كان يكبله الخجل، أفاضت على أرواحهم من روحها الطاهرة ...كان تحريضها بسيطًا بساطتها ..سلسًا كسلاسة إصرارها على المنهج الذي تربت عليه منذ أن التقت بالشيخ يعقوب، و كان دفاقًا تدفق الدماء في عروق المجاهدين ومن قلوب الشهداء... هو ما عاشه صلاح الدين سلطان حقيقة ولمسه واقعًا .. أم نضال تتحدث من قلبها .. وما خرج من القلب دخل القلب .. ليس لها في الفذلكة ولا البلاغة ولا التكلف من نصيب .. يخرج الحديث من قلبها كسلسبيل من بين الصخور، ثم تتابع دفقاته وموجاته، ولا تفقد سلاسته وبساطته .. وقف مذهولًا وهو يعلن عن أن أم نضال قد جاءتكم لتتحدث إليكم ، وما فطن إلا وقد اندفع المرابطون نحو السيارة التي تقلها ، فلم تستطع الترجل منها لورم قدمها من انسداد شرايينها ، اندفع المجاهدون نحو السيارة، وأوشكوا أن يرفعوها على رؤوسهم، لأن أم نضال بداخلها .. لم يتمالك الرجل نفسه فبكى .. وأخذ يردد بصوت يجلجل : هي غزة الإسلام يا أيها الأبطال .. هي أم نضال ابنة غزة العزة .. هو شرف الجهاد .. شرف العطاء وصدق البذل .. هي ذروة سنام هذا الدين العظيم ... تدفق صلاح كما لو كان شلالًا ، وقد أفاض .. كانت ليلة من ليالي عمر أم نضال .. هي ليلة العمر .. خاصة بعد أن رأت أطياف روح عماد ومحمد ونضال وهي تصفق بأجنحتها

النورانية من فوق رأسها .. تقول : هيا ؛ وهي تدرك أنها لبت النداء .. لكن لا تزال في أول الطريق بعد أن حملت السلاح في عرس أحمد ياسين ... انفجر صاعق في يدها فكاد يبترها؛ إلا أن رحلة علاج مضنية وطويلة قد أبقت – برحمة الله – لها يدها ، كانت تذكر أم نضال ذلك وهي تنظر إلى يدها ، وقد هامت في حمد ربها وشكره وحبه أن أبقى لها يدها لتحمل بها السلاح وتقاتل .. أن تقوم بعملية استشهادية، هذا ما كانت تردده صباح مساء وتتمناه ...

****

(أم نضال ... نائب)

القضية هي قضيتنا ، والشعب هو شعبنا ، تدور من حولنا المؤامرة كما حبل المشنقة ، وأعداؤنا لا يهدأ لهم بال إلا بعد أن يرونا معلقين على أعواد المشانق .. لذا لابد من أن نجابههم ونتصدى لهم ، صفًا متحدين .. لا يتخلف أحد عن أي ميدان يستطيع أن يجاهد فيه .. كانت هذه همسات أم نضال لأولادها .. كانت تلك الهمسات حجة عليها عندما طلب إليها أن تخوض الانتخابات .. شهقت: أنا .. لا يمكن أن يكون هذا ، توجهت بكل كيانها لجميلة ، وهذا اللتين جاءت بتكليف حركة حماس لها بأن ترشح نفسها للانتخابات .. خرج الكلام من صدرها حارًا حرارة رفضها .. أنتُنَّ تعلمن بأنني نذرت نفسي وأولادي للعمل في سبيل الله وفي ميدان الجهاد ، وهو أمر يتطلب السرية وعدم الظهور، وهو ما يتلاءم مع تكويني النفسي .. ثم ابتسمت ، وليس لي في السياسة . ..ولا أعرف مداخلها ولا مخارجها .. ثم اتسعت ابتسامتها أكثر ... مستعطفة .. إني مريضة والنائب عليه أن يجوب الأرض طولا وعرضًا ، يتفقد الفقراء والمساكين ، ويستقبل أصحاب الحوائج وما أكثرهم .. ولا أستطيع .. هل سمعتن بمريض أمي ، يعشق الظل ، يتقدم ليقود عملًا يتطلب الصحة والدرجات العلمية الرفيعة والزعامة ، وهذه ليست عندي وليس لي فيها من نصيب .. أفرطت أم نضال في انكار ذاتها ، ولم تجد إلا الإصرار ..... يا سيدتي لقد تحققت لك من الثقافة ما لا ينكره الكثير .. فلقد قرأت الكثير الكثير .. أليست أمينة مكتبة مسجد الإصلاح .. وبتكليف من الشيخ أحمد ياسين .. وألست أم الاستشهاديين التي تحرض على

الجهاد؟ ولقد طبقت شهرتك في ذلك كل المجاهدين !! ألست فلسطينية وقد عشت هم القضية، ولقد تجمعت لك خبرات السنين ؛حروب تتالت .. زعامات .. قيادات .. مبادئ ... شعارات .. لقد عايشت تاريخ القضية يا أم نضال، وهو ما لم يتحصل عليه الكثير الكثير من حملة الدرجات العلمية العالية كما تقولين .. ثم أنت تخرجين لميادين العمل تزورين الجرحى ، تسيرين في مواكب الشهداء ، وتتقدمين الجموع في تقديم واجب العزاء في كل شهيد .. في كل شهيد .. في طول القطاع وعرضه يا أم نضال .. يشهد لك الناس بأنك شخصية تجمع ولا تفرق ..تحب الخير للجميع .. لم تزل الأخوات بأم نضال حتى وافقت .. وافقت على أن ترشح نفسها على القائمة ..

لم تنصب سرادقًا انتخابيًا .. لم ترد على ألسنة السوء التي أخذت تغمز في مؤهلها العلمي .. ولم تخدع أحدًا بمظهر أو بمعسول كلام... هي أم نضال

****

ظهرت النتائج حاسمة بفوز حركة حماس ... أمسكت بمقود القضية .. انتخب عزيز دويك رئيسًا ، وأحمد بحر نائبًا للرئيس ، فازت أم نضال ، وأصبحت نائبًا للشعب ، أسقط في يدي الخصوم ... أحدث ذلك انقلابًا في حياتها .. عزز دورها الجهادي .. كانت قد ودعت أبناءها الثلاثة وأباهم كما ودعت عمادًا .. ودّعت القادة العظام .. وها هي تصدح بالحق من منبر البرلمان .. وهذا يستوجب القراءة و المتابعة ، الأمر جد وليس بالهزل ... تقاطر أصحاب الحاجات من حولها .. صار منزلها محجة .. هذا عبء بل أعباء ثقيلة .. لم تدخر للغد مالًا ... تنفق ما تتقاضاه على أرحامها ... على الفقراء .. على الجرحى .. على أسر الشهداء .. أصبحت من الغارمين أكثر من مرة .. تستقبل الوفود استقبال الفاتحين، لأنهم يأتون إلى غزة ..

تتمنى أن تلقاهم في نقطة العبور؛ تكريمًا لهم واحترامًا ، إلا أن الأمراض تحول بينها وبين ما تريد ... تحرص على الحضور .. لا تغيب إلا إذا أقعدها المرض .. تعتذر عن عدم القدرة على الحضور والمشاركة فيعذرها أبو أكرم بحر بكل تقدير واحترام ، لا يكلفها بثقيل الأعمال رغم حرصها على ذلك ... المرض يشتد، يزورها أبو العبد، ويقول لها ممازحًا: أنت رحمي .. وصلة الأرحام من الفروض .. تمازحها تقوى، فتبتسم شاكرة لدولة الرئيس زيارته . تقف منافحة عن حق المرأة والطفل والمرضى في حياة كريمة .. وإذا ما طرحت قضية شهيد أو أسير أو جريح تنطلق بكل كيانها .. لتنتزع لهم الحقوق (فمن حقهم أن يعيشوا حياة كريمة .. لقد قدموا للوطن ما لم نقدمه نحن) يصمت الجميع إذا تحدثت أم نضال ، تذوب حياء، وتوشك على قطع الكلام لتلوذ بالصمت ؛ ولكن لا ، إنها الأمانة .. أمانة الكلمة .. وإذا ما انتهت يعود إحساسها بالحياء .. كيف يصمت هؤلاء ؟ وما الذي قلته حتى يستمعوا له بكل هذا التوقير ..؟ (إنها ثمرة الجهاد يا أم نضال) يهمس لها أحد الزملاء .. فتزداد انكماشًا في مقعدها ، وتردد في سرها : اللهم تقبل .. جنبني ربي الرياء والعجب ، لم يختلف على أم نضال اثنان .. أصبحت البؤرة التي تجمع الأشعة المتناثرة .. رجالات فتح وزعاماتها .. والجبهة الشعبية والديمقراطية ... من اليمين إلى اليسار .. تحتدم الخصومات والمناكفات ، شأن كل مجلس نواب إلا عند أم نضال لا يعارضها أحد ولا يقاطعها أحد ، كما أنها تعودت ألا تقاطع أحدًا، وإن عارضت فلتقديم الصالح العام على الخاص .. اجتمعت لها الحنكة والكياسة .. ودقة الفهم واللباقة .. كما اجتمع لها الاستعداد وحسن الأداء ، البساطة وسهولة العرض .. وعندما تعود إلى البيت تتفقد الصغير والكبير ... ثم تستقبل (مريم) عبر شريط الذكريات، الذي لا يفارقها وتقف عند محطات ومحطات .. تبكي أحيانًا .. وتبتسم أحيانًا .. حتى إذا ما عادت إلى أم نضال النائب نهضت إلى مكتبها .. وقد

وضعت نظارتها على عينيها .. يدخل وسام : والله يا حاجة .. سبحان الله .. تدرسين .. تناقشين .. تحاورين .. تبتسم بحياء طفولي : أليس هذا ما أجبرتموني عليه ؟ !!

****

لم تسر الحياة للمجلس التشريعي في خطها المستقيم ، فقد تحرك الحقد الدفين والنوايا السوداء .. حتى كان اليوم الأسود في حياة أم نضال ومن على شاكلتها .. لقد نجح المراهقون والعابثون في شق الصف .. ولم ينجحوا في اختراق الحصون ولا في انتزاع المواقف ولا هدم القلاع كما قال إسماعيل هنية وتشربتها أم نضال .. لم ينجحوا في أن تكون أم نضال غير أم نضال ، وبقيت هي .. هي حتى ودعت الحياة .. فبكتها المنابر ..وساحات الجهاد .. كما بكاها أشد خصوم طريقها وما آمنت به

*****

(وفارقت الروح الطاهرة دنيانا)

آن لفرس الرهان أن تستريح الراحة الأبدية .. كم حملت يا أم نضال من هموم وكم كابدت من عناء و ضنى ...وكم انطلقت وعلى متنها خير أجنادك يا أقصى .. عماد ومحمد ونضال ورواد فلذات كبدها .. وكم هجرك المجرمون من بيت إلى بيت .. وقد تطايرت منازلك وأنت تنظرين بعين يملؤها الأسى والحزن، وأخرى ترى بنور الله فتقول : ذلك خير .....

آن الأوان للجندي الذي وثب من غزة إلى ضمير الأحرار ، إلى ملوك الدنيا .. إلى الدعاة والثوار .. إلى عواصم.. إلى قلوب النساء والرجال .. آن لها أن تستريح .. آن لأم نضال التي أضحت رمزًا لكل غيور ، وعنوانًا لكل باحث عن الإباء والوفاء ، أن تستريح بعد أن اشتد عليها المرض، شواكيش الصداع التي لازمتها منذ أن كانت تجري بضفائرها، وتتقافز على مربعات (الحجلة).. وأيام أن كانت الأم الصغيرة لأشقائها الذين يكبرونها والذين يصغرونها ولشقيقاتها ، بل كانت أمًا لأمها وأمًا لأبيها .. ويوم أن أخذت تتغنى : بلادنا بلادنا من أجلها جهادنا .. لم تسعفها لمسات الأستاذة سعاد الحانية ، ولا فتوة الملازم مصطفى ، ولا مبادئ الإسعافات الأولية التي أخذتها عن الأبلة سوزان .. كانت ضربات الشواكيش أقوى من أن يتحملها كيانها الضعيف الهزيل ، وما لبثت إلا وقد استوطن دمها ذلك الرفيق الغدار .. السكر .. بعد أن دب الوهن في بنكرياسها ، فلم يعد بقادر على أن يمد دماءها بالأنسولين ، فأخذ يفتك في خلايا جسدها حتى أذاب الكثير منها ، وكاد يهدم عظامها .. فانحرفت سهامه فأصابت أمعاءها التي عجز الأطباء

أن يستأصلوا الزائدة منها لما فتت السكر من خلايا جسدها وجعلها لا تحتمل الجراحة .. آن للفارسة أن تترجل بعد أن انسدت شرايين سيقانها فتورمت ، فأحدث الورم ضغوطًا على أعصابها ، فانتشر الوجع في كل كيانها حتى لو وزع على الدنيا لكفاهم ، وبقي لها نصيب لو أصاب جبلًا لبرخ به وهي صابرة محتسبة ....إذن لابد أن تذهبي يا أمي للعلاج في مصر .. وسار الركب؛ حسام ومؤمن وزوجتاهما وإيمان .. وصلت معبر رفح تتهادى على كتفي ولديها .. طال الانتظار .. المسافرون بالمئات .. الكل ينظر إليها .. نعم إنها هي .. يتوافدون لمصافحتها .. لا ترد أحدًا .. تتحدث بوهن .. وتمد يدها بوهن .. تقبل أيدي الأطفال .. تبادل النساء القبلات .. تنحني لإيماءات الرجال .. تمر ساعة فأخرى .. يصدر الإذن لها ولمرافقيها بالسفر رغم الملاحظة التي تبرز للشرطي أمام كل اسم من أسمائهم (ترقب الوصول) إذن هم ممنوعون من دخول أرض الكنانة إلا بعد التنسيق والإذن .. وهذا أمره يطول .. لكن جاءت اللحظة .. خرجوا إلى البوابة التي تفضي إلى مصر .. رفعها مؤمن وحسام إلى السيارة التي انطلقت في يوم شتوي عاصف بالبرودة .. وزوبعة من الريح تغطي وجه الطريق بأكوام من تراب سيناء الذهبي ... لم تلتفت إلى النخيل ولا إلى الكثبان الرملية .. لقد خطف الألم حواسها إلا الإحساس بالألم .. ساقها تتفجر ألمًا .. معدتها .. رأسها تطحنه الشواكيش ... قلبها لا يكاد يخفق .. أنفاسها تتلاحق .. عيون المرافقين مشدودة .. تجري وراء أنفاسها المتلاحقة .. خمس ساعات وستصل إلى الطبيب .. مرت وكأنها خمسة دهور .. وأخيرًا هي بين أيدي الأطباء في مشفى رابعة .. تأتي زوجة الرئيس لزيارتها .. لقد ارتبطت روحاهما .. بعد أن تلاقتا في طريق (الله غايتنا) لا بد من أن يتوقف الألم ، لا بد أن تتوقف الشواكيش ... الوجع يعتصرها .. يحطم كيانها .. يعطيها الطبيب حقنة لعلها تخفف من آلامها ..من إحساسها بتحطيم كيانها .. تدخل في غيبوبة .. ساعة ساعتين ثلاثة ... بطنها تتورم .. لابد من استئصال الزائدة ... فجسدها لا يحتمل

المبضع ...خلاياها غير متماسكة .... كذرات من التراب الجافة .. لا يربطها رابط .. تفيق ويزداد الألم .. هدها السهر الذي يلازمها مع كل وخز الوجع المتلاحقة .. هذا حسام .. وزوجته .. تبتسم معتذرة أنها السبب في إرهاقهما .. سالت دمعتها حياء .. حبيبتي؛ أنت ترافقينني وتتركين أولادك هناك ... سرت في ذراعها قوة .. تمكنت بها من إمساك يد أم علي .. قبلتها ... لماذا يا عمتي تقبلين يدي ؟ نظر حسام إلى زوجته وكأنه يأمرها بألا تعاتب أمه .. فلتفعل ما تشاء ...

***

انتصف الليل .. ذهبت كنتها ... جاءت ابنتها إيمان .. يومان مرا ببطء وألم .. قرار الجميع على العودة إلى غزة .. فخفق قلب أم نضال .. إلى غزة ... رغم خمس ساعات من العذاب .. سيارة الإسعاف المجهزة بأحدث الأجهزة الطبية ..تنتظر .. انطلق الركب .. وصل .. دخل المعبر .. ليس في المكان مكان لمهنئ بسلامة الوصول .. دخل الركب الحزين بيتهم الذي يغرق في هاجس ثقيل .. كان يوم الجمعة حافلًا .. تقاطر الصحب والأحباب .. إسماعيل هنية .. أحمد بحر .. جميلة الشنطي .. هدى نعيم .. جاء الوزراء .. جاء أعضاء المجلس التشريعي .. قادة الفصائل ... المجاهدون .. جاء الضيف .. وأم نضال بين الغيبوبة والإفاقة .. تمر الساعات ثقيلة .. تفيق لتتفقد من حولها .. تبتسم .. تردد الاستغفار مع تصاعد الآهات .. لتدخل في غيبوبة .. يقول حسام لأخوته : يبدو أن أمي ستودع الحياة .. انفجر الجميع في بكاء ونحيب .. أرسلوا في طلب كل بناتها وأزواجهن وأولادهن .. اجتمع الأولاد ، والأحفاد .. والشقيقات ، والأشقاء.. حاولت عطاف أن تصرخ لكنها أسكتتها بعينها في لحظة إفاقة .. إيمان تفرك يديها وتضرب كفًا بكف .. ولا يتوقف لسانها عن الدعاء ... انتحت جانبًا... كتبت قصيدة

لأمها .. وكتبت رسالة ... إنعام تبكي بصمت .. وزفرات إيناس كسرت الصمت .. أمي ...أمي ...أمي ...وأخذت إلهام –بلوعة وأنين – تدعو الله أن يلطف بأمها .. صرخ مؤمن : اذكرن الله .. يتحرك وسام كمن فقد وزنه ...تمر الدقائق ثقيلة بطيئة .. حتى كانت الساعة الثانية من بعد فجر الأحد .. يومان مرا على وصول أم نضال إلى غزة من رحلة علاج .. الساعة الثانية ....لا يرف لها جفن .. ليست ككل غيبوبة . لقد ذهبت أم نضال .. لتلحق بمحمد الذي سبقها إلى هناك قبل إحدى عشرة سنة، وتلحق بنضال الذي سبقها بعشر سنوات وشهر، وبرواد الذي سبقها بسبع سنوات ونصف السنة ، وبرفيق عمرها الذي سبقها بثماني سنين وتسعة أشهر ، لتلحق بعماد الذي سبقها قبل تسعة عشر عاما وأربعة أشهر .. وتلحق بقوافل الشهداء .. أحمد ياسين .. عبد العزيز الرنتيسي .. إبراهيم المقادمة .. إسماعيل أبو شنب .. لتلحق بالفاتحين .. لتعيش في قلوب الأحرار والثوار والطامحين إلى الخلاص والانعتاق .. لتعيش في قلوب عشاق الشهادة، نموذجًا فذًا لامرأة فلسطينية عاشت للوطن ، وماتت من أجله ، وقد عمر قلبها الإيمان بأن النصر آتٍ لا محالة ، وهانت عليها الدنيا كلها بمباهجها وزخرفها ، والمال والولد .....

ذهبت أم نضال فجر الأحد في العام الثالث عشر من بدايات قرن سيشهد لا محالة زوال إسرائيل كما تمنت ....

ذهبت أم نضال (أسطورة الفداء والرحمة) في اليوم السابع عشر من شهر مارس لسنة 2013 في تمام الساعة الثانية فجر الأحد

(الفـــهـــرس)

العنوان	رقم الصفحة
الميلاد	